أنا الموقع أدناه

محمود درويش



أنا الموقّع أدناه
محمود درويش

بحضور

إيفانا مرشليان

دار الساقي

إلى كل المتنزّهين

تحت المطر الباريسي الحزين

وهم سعداء

أنا الموقع أدناه محمود درويش، أتعهّد
باسم الضمير والأخلاق والمقدسات، بأن
أسلّم الحوار الصحفي مع الآنسة إيمان
الرهيبة، كاملاً، في الساعة الرابعة من بعد
ظهر السبت الموافق ٢٨ ديسمبر عام ١٩٩١،
وإلا، فمن حقّ إيمان أن تشهّر بي، علانية
وعلى رؤوس الأشهاد والأشجار.

٢٥/١٢/١٩٩١

حوارنا الباريسي الطويل مدوّناً بخط يده

محمود درويش قبل اثنين وعشرين عاماً:

"أهديكِ هذه المخطوطة...

حافظي عليها جيداً وتصرّفي بها في الوقت المناسب"

تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١

زمن لم يكن فيه لا المرض ولا الغياب مرادفين لاسم الشاعر الفلسطيني محمود درويش، بل النجومية المطلقة، في مدينة النور، حيث أمضى أعوام مرحلته الشعرية الذهبية، في عجقة الحضور والنشر والتأليف والأمسيات.

... وهناك أيضاً، احتفل الشاعر بدخوله الخمسين.

لقاؤنا الأول تمّ في باريس، العام ١٩٩١، بعد أمسية قرأ فيها من ديوانه الأخير "أرى ما أريد" واحتشد لسماعه آلاف العرب والأجانب... أما الثاني، ففي منزله الكائن في ساحة الولايات المتحدة الباريسية، والمطلّة من طبقته الخامسة على برج إيفل و"أشجار المنفى والحمامات الرمادية"، وذلك بعد أن وافق شاعر فلسطين، المعتكف عن المقابلات لأكثر من أربعة أعوام، على إجراء حوار أدبيّ معي، بطلبٍ من الأستاذ أنطوان نوفل، رئيس تحرير مجلة الدولية، وكنت يومها محرّرة ثقافية فيها.

تأجّل موعدي مع محمود درويش مرتين:

الأولى "لأسباب عمل طارئة"، والثانية لدواعٍ بحت مزاجية.

وقد صارحني لاحقاً أنه كان شبه واثق من عدم منح أي حوارٍ صحفي من أي نوع كان لكل الصحافيين الراغبين في لقائه، بمن فيهم أنا، من دون استثناء أو تمييز:

"أنا ممتنع – قال – عن التصريحات منذ فترة طويلة، ولا قابلية لي على تكرار الكلام عينه. أفضّل أن تكتبوا مقالات تتناولون فيها أشعاري وكتبي الجديدة".

لكن، ومن حسن حظي، أن موقفه هذا من الإعلاميين لم يكن نهائياً، إذ عاد واتصل بنا الشاعر في المجلة، بعد أكثر من أسبوعين، ليثبّت الموعد الثالث:

"تعالي يا إيفانا إلى البيت،

أنتظركِ غداً عند الرابعة... ولا مانع لديّ إن تأخرتِ قليلاً".

دعوة ملغومة، تشبه، إلى حدٍّ غير مبالغ فيه، أغنية فيروز "تعا ولا تجي"، وأفهمتنا جميعاً مضمونها المبطّن الذي يخفي ربما رغبةً في عدم اللقاء.

دعوة انتظرتها لأكثر من أسبوعين، لكن ما أن وصلتني حتى أجفلتني وقلبَت سعادتي غمّاً وعتباً، دون أن يتأثر أو يتفاجأ لهذه المزاجية زملائي والمسؤولون في المجلة، بل راحوا ينبهّون عليّ بإجماع العارفين:

"تحضّري وحضّري أسئلتك بذكاء وعناية. وفي مطلق الأحوال لا تتوقعي أن يستقبلكِ لحوارٍ صحفي، بل ربما للتعرّف إلى عاشقةٍ استثنائية لأشعاره، بحسب ما أخبرناه عنكِ بعد الأمسية".

في ذلك اليوم بكّرتُ في ترك مكاتب المجلة، وأهملتُ، لأول مرة، محاضرات مهمة في الجامعة لأتفرّغ ليلةً كاملة للأسئلة.

عدتُ مسرعةً إلى غرفتي في البيت الأرمني من المدينة الجامعية، وحضّرتُ القهوة المرّة لقريحتي المشتّتة، ورحت أتأمل بصمت الشجرة العملاقة، قبالتي، تمايلها عاصفة هوجاء في الخارج، ففتحتُ لها، لأول مرة منذ أربع

أعوام، شبّاكي الزهري الواسع، وتركتها تقتحم الغرفة بأغصانها المبلّلة:

"شعر درويش الحزين - قلتُ في نفسي - يشبهُ الشتاء... فعسى المطر الغزير في الخارج يلهمني أسئلةً تروق له، فلا يرفضني ولا يرفضها، وإلا سأحقدُ عليكَ أيها الشتاء طالما حييت".

وحيدةً جلستُ عند حافة النافذة، أراقبُ حركة المارة ومظلاتهم المتطايرة على امتداد جادة جوردان، وأدوّن أفكاراً وأسئلةً محتملةً لشاعر "جواز السفر"... و"أمي" و"ريتا".

٢٠ سؤالاً وأكثر رتّبتها وأنا على قلق:

ماذا لو خيّبني درويش بعد لقاء الغد، كبقية الإعلاميين الذين اعتذر منهم بالجملة ولم يخصّ أيّاً منهم بعبارةٍ أو كلمة؟

أقنعتُ نفسي بالأمل إلى أن اقتنعتُ أخيراً:

الحوار مع شاعر "ورد أقل" و"ذاكرة للنسيان" يستأهل كل هذا الانتظار، حتى لو لم يحصل اللقاء أبداً!

١٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١

إنها الرابعة من بعد الظهر، إلا... عشر دقائق، جاءت إضافية رائعة ومنقذة، جلتُ خلالها وحدي في أرجاء الساحة الفسيحة، أستنشق جوّها الماطر باستمتاع وهدوء، وأبحث عن الرقم ٧ من بين سائر المباني المتشابهة، محاولةً التخفيف مما في داخلي من توتّر... كيف لا والشاعر الذي فوق هو محمود درويش، وكنت أتحضّر نفسيّاً للاختبار الثقافي الذي نبهّني إليه زملائي، وتلك سابقة أربكتني لأنها غير مسبوقة في حياتي المهنية.

دقائق قليلة أرجعتني، رغماً عني، وأنا أنتظر الامتحان الدرويشي، إلى مكانٍ وزمانٍ آخرين، إلى جامعتي في لبنان، وتحديداً إلى الامتحان الاختباري الأول في كلية الإعلام، حين سُئلنا:

لماذا تختارون الصحافة مهنةً لكم؟

فأجبتهم بعفوية مطلقة أكسبتني العلامة المرجوّة بامتياز:

لأحاور يوماً... محمود درويش!

وجاء اليوم الموعود... وقفتُ على بعد خمس طبقات من تحقيق حلمي الصحفي، أعانقُ عقارب الساعة: إنها الرابعة والربع، ولدي بعد متّسع من الوقت أتأخّره بحريّة، نزولاً عند رغبة صاحب الدعوة... و لم أحسم أمري قبل الرابعة والنصف، حين صعدتُ أخيراً، لأجده في انتظاري، أمام مصعد شقته، جميلاً أنيقاً مبتسماً و... متأملاً ساعة يده:

- **يا أهلاً بإيفانا الرهيبة... لماذا هذا التأخير؟**

- أنتَ طلبتَ مني أن أتأخر...

واستعجلتُه: أستاذ محمود، هل تمنحني الحوار لأن رئيس التحرير أصرّ عليه؟

فأجابني، محاولاً التخفيف من وطأة الاتهامين:

- **حقاً أنت رهيبة! هذا كله تأويل!! "كنتُ أمزح معاكِ".**

بعد وصولي بدقائق تبعني عبد قاروط، مصوّر المجلة، وجلسنا ثلاثتنا حول طاولة الطعام المستديرة، نحضّر لجلسة التصوير الثانية، فإذا بدرويش ينبّه علينا، بلباقته المعهودة، أن لا ضرورة لكل هذه الجلسات "ما دام الحوار معي ليس مؤكداً بعد". غير أنّ الزميل المصوّر تصرّف كما لو أنه لم يسمع شيئاً، فأنقذ الموقف من حيث لا يدري، إذ فتحَ شباك الواجهة الزجاجي، وطلبَ منه الوقوف قبالة برج إيفل، فخضع الشاعر للطلب بكل طيبة خاطر...

وعندما أمعن عبد في امتداح الصور السابقة، التي التقطها له أمام مكتبته وداخل مكتبه... وهو يكتب ويشرب القهوة، بادره درويش بروحه المرحة:

"**بكفّي تصوير يا عبد... أنا شاعر مش فنان**"، ثم علّق منتقداً مزاجه:

"**الشهر الماضي كنت مرتاح أكتر، اليوم أنا شوي تعبان**"...

وذلك قبل أن يدعونا للدخول معه إلى المطبخ لنشهد على تحضير القهوة الدرويشية الشهيرة... وطبعاً بعيداً عن عدسة الكاميرا. وأثناء إعداده القهوة – النجمة مازح

محمود درويش المصوّر مجدداً:

• أين تعلّمت الترهيب يا عبد؟

إذ أضحكتنا طريقته الفعّالة في التقاط أكبر عدد من الصور في وقت قياسي، لاغياً من قاموسه أي فرصة اعتراض من الطرف الآخر. فيردّ عبد:

"ما حدا بيعرف أستاذنا... بكرا بس تربح نوبل بكونوا صورنا جاهزين".

استسلم درويش لكلمات المديح، واستمع إليها برحابة، دون أي تعليق. وبعد مغادرة المصوّر سألني الشاعر ونحن نغلق خلفنا الباب:

• هل تعتقدين أنّ الجوائز العالمية تزيد من أهميّة الشاعر؟

– بالتأكيد أستاذ محمود...

• بأي معنى؟

– لأنها ربما، ولست أكيدة تماماً مما أقول، تزيد من ثقة الشاعر بنفسه وبجدوى شعره، قبل أي شيئ آخر. صحيح أن الامتيازات المادية والمعنوية تكون مهمّة، لكنّ فرحة الفائز باعتراف الآخرين بأهمية ما يقوم به هي الأهم.

• لمن تقرأين لغير العرب، من تفضلين بينهم؟

[شعرتُ حينها أن ساعة الامتحان الشفهي... قد دقّت]

– لا أحب شاعراً أو روائياً أو كاتباً مسرحياً واحداً، لكنني أميل إلى قراءة أي كاتب، كاملاً ودفعة واحدة ... أحبّ أن أكتشف الهاجس الأساس الكامن خلف نصوصه، الهاجس اللغز لدى الذين يكتبون.

• لا تنسي هاجسَي اللغة والكتابة... غالباً ما نكتب لنكتب، لأننا نحب ذاتنا أكثر حين ننحني فوق الورق الأبيض، نملأه بما نرغب من حروف وكلمات وأفكار... نكتب لأننا لا نتقن فعل أيّ شيء آخر بالجدارة عينها.

– هذا يعني أن دافعكَ إلى الكتابة أدبي بحت؟

• طبعاً، أدبي وشخصي، الإنساني يأتي لاحقاً... "عبالك فنجان قهوة تاني"؟

تبعتُه بصمت ووقفتُ قبالته مجدَّداً، أراقب حركة يديه وهما تبدعان في تحريك القهوة، فكان من البديهي أن يحضرني نصّه الرائع في "ذاكرة للنسيان"، فذكّرتُه به:

هنا على الأقل، في باريس، لديكَ كل الوقت لتحضير قهوتكَ!

• هل قرأتِ لي نص القهوة؟ إنه من نصوصي الأحب إلى قلبي في "ذاكرة للنسيان". قهوتك حلوة؟

– لا، مُرّة!!

• حتى قهوتك كافكاوية؟ تعالي نتكلم في الداخل!

كم عمركِ إيفانا؟

– ٢٦ عاماً.

• أنا... قليلاً وأدخلُ في الخمسين.

– إنشاء الله العمر المديد أستاذ محمود، مئة عام على الأقل، أنت تستأهل أطول عمر ممكن!

• ضاحكاً: مئة عام؟ يا ريت!

ثم مستوضحاً: أنتِ من أي منطقة في لبنان؟

– الأصل من الأشرفية (وضحكتُ)

• ليش بتضحكي؟ ثم انتقل سريعاً إلى موضوع آخر:

أحببتُ أنكِ لستِ معجبة بكاتبٍ واحد، ولكن، في نهاية المطاف، نجدنا نقرأ بكثرة شاعرين أو ثلاثة.

- صحيح، هذا ما يحصل غالباً. أقرأ كثيراً كافكا دون أن يكون بالضرورة كاتبي المفضّل... لكنني أشبههُ كثيراً!

• (مقاطعاً): من ثيابك السوداء الطويلة قلتُ في نفسي: "البنت كافكاوية، يعني ممكن فلسطينية كمان... طبعاً تنقص الكوفية".

- فلسطينية؟

• رأيتكِ بالأسود الطويل، الشبيه بتنانير الفلسطينيات السوداء الطويلة.

- هذه تنانيرنا المقتطعة من رايات فرحنا المشترك!

• "الفرح بإيش؟! بنات باريس بعمرك ما بيلبسوا هيك أسود"... يعني ملاحظة عابرة.

عدنا إلى الصالون لنشرب قهوتنا، فبادرني درويش:

إيفانا، أن تكوني هنا في ضيافتي لا يعني أنني وافقتُ على المقابلة. تعلمين أنني ممتنع عن الكلام منذ سنوات، حتى مقابلاتي قبل ذلك التاريخ كانت نادرة. أحياناً، أتجنّب الوقوع في مطبّات الأسئلة الجاهلة لدقائق الأمور والتفاصيل والحقبات...

(وبعد صمتٍ وتفكير): **قولي لي، ماذا تعرفين عن محمود درويش يا فتاة الأشرفية؟**

[كم استغربتُ أسئلته حول هويّتي الحزبية وميولي السياسية]

ثم تابع والابتسامة على وجهه:

"بال ٨٢ رشيّتي الغزاة اللي دخلوا بيروت ليقضوا علينا بالورد والرز؟"

فأجبته مقاطعةً: "بتعرف أستاذ محمود إني زعلت منك؟"

• **"ليش تزعلي مني؟ هادا شي حصل ببيروت!"**

– أجبته بحدّة: "أنا لبنانية من أصل أرمني... والأرمن، متل ما بتعرف، ما بشاركوا ولا بأيدوا الإبادات. الأرمن، متل الفلسطينيين تماماً، ارتُكبت فيهن إبادات... بعدين يا ريت تكون موضوعي.

بتعرف؟ نحنا تنيناتنا مدينين لبعض باعتذارين: الأول مني لإلك، لأني من منطقة يمكن تكون هلّلت لخروج الفلسطينيين من بيروت تحت قصف الدبابات الإسرائيلية،

والتاني منك أستاذ محمود، لأنك مدين لإلي باعتذار كبير كمان!!"

• "وليش أعتذر"؟

– صحيح أن أصولي من الأشرفية، لكنني من سكان الشياح في الضاحية الجنوبية لبيروت. في الـ٧٥ كنّا بين الدفعة الأولى من قافلة المهجّرين في الوطن، على جبهة الشياح – عين الرمانة...

نحن أيضاً في حيّ ماضي شُرّدنا من حينّا وطفولتنا بسبب حركة مسلّحة من الشباب الفلسطيني، رأوا أن يحتلوا بيتنا، بقوة السلاح، أسوةً ببيوت كل الأهالي المسيحيين، كتعويض عمّا ضاع منهم في فلسطين!!

•مقاطعاً: إذاً، لماذا تحبّين شعر محمود درويش ما دام نحن من هجّرناكِ من بيتكِ وطفولتكِ؟ "أنا كمان فلسطيني، ما تنسي"!!

– "لأنو، بكل بساطة، الشعر والفن... أقوى من الدبابات".

تصوّر أن شعركَ كان، ومن حيث لا تدري، سقف بيتنا. في وقت طويل من الحرب لم نكن نملك فيه بيتاً...

• كيف؟

- كنتُ في الثانية عشرة عندما تعرّفت إلى كتاباتكَ لأول مرة، عن طريق الصدفة، وذلك عندما سلّمتني إدارة المدرسة في حفل انتهاء العام الدراسي مغلّفاً مختوماً دوّن عليه: جائزة اللغة العربية.

من داخل ذلك المغلّف أخرجتُ **"يوميات الحزن العادي"** ليصبح هذا الكتاب، لاحقاً ولسنوات طويلة، رفيقاً دائماً لي، أحملهُ معي من المدرسة إلى البيت ومنهما إلى الملاجئ...

كنتُ أخاف عليه من الضياع، في عجقة التنقّل العشوائي أثناء الحرب. هذه السيرة بالذات كانت بالنسبة إليّ أهم من البيت والمدرسة والأكل والنوم الآمن. لم أصدّق حينها، من فرط كآبتي الطفولية، أن أجد عنواناً يكرّس يوميات للحزن... العادي.

مرةً سألت أبي: هل قرأتَ هذا الكتاب؟

- فأجابني: طبعاً... وكان موجوداً في مكتبتنا في بيروت. كانت عندنا كل دواوين محمود درويش، لكنها

ضاعت للأسف!.

- من هو محمود درويش؟

- هو أهم وأشهر شاعر فلسطيني اليوم، "بيكتب من هو وزغير شعر ونثر وعندو دواوين لازم نرجع نشتريها"، وتابع متحسّراً:

"بس قالولنا إنسرق بيتكن، أكتر شي زعلت عدواوين درويش".

• "أبوكي بحب شعري؟"

- جداً...

• "هو عايش؟"

- "عايش"، ويسمّيكَ بريد فلسطين إلى العالم. يعتبر أنكَ والرحابنة وفيروز أفضل من خدم القضية الفلسطينية.

• "يوميات الحزن العادي، هادا كتبتو متل الحلم"،

ثم متابعاً: "ذكّريني، شو بقول فيه؟"

- في "قصة حب": "أنا علمتكِ التدخين... وأنتِ علّمتني مرافقة الدخان".

• متعجباً: "أنا قلت هيك؟ والله حلو هالكلام!"...

وبعد صمت: "**إيڤانا، اتركيلي الأسئلة واحكيني بعد أسبوع... وبس تتّصلي ببيروت قولي لأبوكي: محمود درويش بيسلّم عليك!**"

سأقرأ الأسئلة وأقرّر، لكنني لن أعدك بشيء الآن.

تركتُ أسئلتي لديه فوق الطاولة الكبيرة في الصالون، وغادرتُ مسرعة، إذ شعرتُ أن هذه اللطافة الزائدة ستكون مخرجاً لائقاً للاعتذار مني بعد أيام، فتسلّحت، من باب الحيطة والحذر، بدرع وقائي يحميني من هول الصدمة، إن هو تجاهلنا واستغنى عن أسئلتي... فتمنّيت على الأستاذ **رواد طربيه**، المسؤول الثقافي في المجلة:

– هل تتصّل بالشاعر محمود درويش الأسبوع المقبل لتسأله بنفسكَ عن مصير الحوار؟

فطمأنني بهدوئه المعتاد: **لا، لن نتصل... هو سيفعل، أنا متأكد!!**

مرّ أسبوع ثم أسبوعان.

كنتُ تناسيتُ أمر تلك المقابلة، إلى أن فاجأني صوته عبر الهاتف:

• "آلو، رهيبة؟ إنتِ بالبلد؟ ليش ما بتتصلي؟"

- اعذرني أستاذ محمود، انشغلت في تغطيات مستعجلة. متى آتي لأراكَ؟

• تعالي بعد غد، وبعد الرابعة!

وما أن أغلقتُ سماعة الهاتف حتى استدركتُ أنّ بعد غد يصادف يوم العيد؛ عيد الميلاد، فكيف لم أتنبّه للأمر؟

٢٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١

الساعة الثالثة

تركتُ مترو كليبير وبي شوقٌ إلى السير على القدمين حتى الساحة الكبيرة للولايات المتحدة. المطر كان خفيفاً، وزينة الميلاد التي تملأ الجادة الواسعة والشوارع خلفها أنبأتني بيومٍ استثنائي سعيد. أعرف الآن، وفي هذه اللحظة بالذات، أنه كان أروع ميلاد في حياتي أقضيه وحدي في باريس، لكنني في الواقع كنتُ أستعدُّ أيضاً، ومن حيث لا أدري، لاستلام أثمن الهدايا:

من أجمل رجل... في أجمل ساحة... في أجمل مدينة.

تجوّلتُ في الشوارع الخاوية، وكأنّ نوراً إلهياً يضيئها. لم أفرح يوماً في باريس كمثل ذلك اليوم. كل شيء حولي كان ينذر بسعادةٍ نادرة، كتلك التي تشعر أنها لا تأتيك إلا

مرة في العمر. تطايرتُ في الضباب الكثيف كالفراشات. شعرتُ بروحي خفيفة، هائمة وملوّنة المشاعر... حطّيتُ فوق مقعدٍ خشبي أتأملُ زينة الساحة الميلادية دون أن تزعجني الحمامات الرمادية، كما العادة... بل اشتريتُ لها خبزاً بالحليب من "البراسري" قبالتي، ورحتُ أطعمها بيدي، ولم أمنع نفسي عن السؤال:

لماذا أنا سعيدة إلى هذا الحدّ؟

من أين أتتني كل هذه السعادة فجأةً؟

هل تكون مرادف الفرح الخائن الذي تحدّث عنه درويش في "يوميات الحزن العادي"؟

["... وفجأةً تضحك، تضحكك المساواة بين المحتلين والغزاة. وأنت تناضل لكي لا تأتمن الفرح... ولقد علّمتك الأيام أن تحذر الفرح، لأن خيانته قاسية، فمن أين يأتيك فجأةً؟"]

لقد أتاني الفرح فجأة، فلمَ أخذله؟

سأشتري هدية العيد لدرويش، ولكن أين أجد هدية تليق بشاعريته؟ رحتُ أبحثُ وأتفنّنُ في انتقاء الهدية: يجب أن تكون منحوتة أو لوحة فنيّة... ولكن، من أين

لي ثمنها؟ إذاً، لا بدّ من تذكار رمزي يفي بالغرض.

ماذا أهدي صاحب "يوميات الحزن العادي"؟

بعد تفكير وحيرة وجدتني أمام حل معقول:

لَم لا أهديه بنّاً بالهال وشوكولا مغلّفاً بحبّات القهوة؟

وصلتُ متأخرة إلى بيت الشاعر ساعة كاملة، لكنني لم أعتذر عن هذا التأخير، لأنه لم يسأل و لم يعاتب.

• ميلاد مجيد – قال لي – ظننتكِ لن تأتي لأن اليوم عيد الميلاد... ولكن عندما تذكّرتُ أنكِ وحدكِ قلت ربما تأتين لكي لا تكوني وحدكِ.

– أنا لستُ وحدي في باريس، أختي باريسية وزوجها وولداهما هنا، وقد عيّدنا سوياً البارحة مع الأصدقاء، لكنّ الجو الساحر في الخارج أغراني للتنزّه... تصوّر أنني دلّلتُ الحمامات الشاردة في الشارع، لأول مرة.

• "هذا يعني أنكِ أفضل حالاً مني. أنا هنا وحدي، كما ترين".

ثم تابع مبتسماً: **"كما كان يسوع، ابن بلدنا، وحيداً".**

– وهل كان يسوع وحيداً؟

• أنتِ ماذا تقولين؟

- على الأقل في ميلاده لم يكن كذلك، كان وحيداً على الصليب!

• أنا أرى العكس! يسوع ولدَ وحيداً في مغارة ليموت... لكنه ماتَ عن الكل، مصلوباً، وعلى مرأى من العالم، ليعيش! تصوّري أنّ يسوعكِ عاشَ على أرضنا وصلّى تحت زيتوننا (...) أحبّهُ أكثر لأنه كان فقيراً، تبعتهُ أمّته وهو حافي القدمين.

- يسوع فلسطيني، صحيح...

• لكن كون يسوع فلسطينياً، ألم يمنحكم سبباً لتحبونا أكثر مما فعلتم آنسة إينانا؟ (ممازحاً).

تجاهلتُ تلميحاته القاسية، لأسألهُ في أمور يومية و... عادية، بعد أن صحّحتُ له إسمي:

- أستاذ محمود، هل تأقلمتَ في باريس؟

• كان على باريس أن تتأقلم معي! هنا تعوّدتُ على أن أقدّر وأحبّ اللغة الفرنسية، لذا أحاول جاهداً أن أتعلّمها بجدّية قدر الإمكان، لكنها لغة صعبة... أليست لغة بودلير ورامبو وهوغو؟

ثم مستدركاً: سأحضّر لكِ قهوة العيد... ولكِ عندي،

بالمناسبة، هدايا رائعة، وستحبينّها.

- ولكَ عندي هديتان ... وستحبّهما.

• أنا هديتي وطنيّة ورائحتها بنيّة.

- وأنا أيضاً، هديتي بنيّة ورائحتها وطنية.

• إذاً، نتبادل هدايانا ونحن نشرب القهوة.

دخل مسرعاً إلى المطبخ، أعدّ قهوتنا وحده، ثم عاد بمغلّف منتفخ قدّرتُ أنّ في داخله الهدايا الموعودة، ففتحهُ بحماسة الأطفال:

• أولاً، أهديكِ بنّاً بالهال... وثانياً، شوكولا بحبّات القهوة.

من هول صدمتي لم أنطق بكلمة، بل تلقيتُ هداياي بفرح كبير ورحتُ أشمّ رائحة البن بالهال... وبادرتُه:

- أنتَ رائع أستاذ محمود ... كم أنتَ رائع! شكراً.

والآن أقدّمُ لكَ هداياي: إحزر ماذا يوجد في هذه العلبة؟

• فيها زعتر بلدي، أم كتاب شعر فرنسي، أنا أكيد أنه لرامبو، وإلا منحوتة أو... ربطة عنق؟

- ما تقترحه شاعري وجميل، لكنني لم أشترِ أيّاً من هذه الهدايا!

وأخرجتُ البنّ والشوكولا من العلبة وقدّمتهما له: يبدو أننا اخترنا الهدايا عينها، من العنوان عينه!!

• وهل اشتريتِ الهدايا من "الكانزيام"، من عند رياض هيجر؟

- من هو رياض هيجر؟

• إنه صديق فلسطيني وأمرّ عليه دائماً: من أين تعرفينه؟ هل يعرف أنكِ تعرفينني؟ هل هو من اختار لكِ هداياي نفسها؟

- لا أعرف صاحب المتجر شخصياً، ولا أعرف اسمه، بل إن صديقاً لبنانياً مشتركاً أرشدني إليه. هداياي اخترتها بنفسي، وصديقكَ لا يعرف أنني أعرفكَ و لم يطرح علي أي سؤال!!

وضعنا هدايانا المتشابهة أمامنا، ورحنا نحدّق فيها بذهول، ثم سألته:

- كيف حصل هذا؟

• "حصل... وصار عنّا مونة بن وشوكولا لشهر كامل"!!

- والمقابلة، هل نبدأ بها الآن؟ لقد شربنا القهوة وأكلنا شوكولا صديقكَ رياض...

• اليوم لا رغبة لي في الكلام، لِمَ لا نؤجلها إلى يوم آخر؟

- لكنكَ وعدتني!

• **نلتقي في موعد آخر، إن أردت بعد ثلاثة أيام... هذا وعد!**

- وعندما فاجأته: هل توقّع تعهّداً خطياً بهذا الوعد؟

• استجاب بطيبة خاطر: **كما تريدين، تعالي معي إلى المكتب!**

هناك أخذ ورقة بيضاء ودوّن عليها:

"أنا الموقّع أدناه محمود درويش أتعهد، باسم الضمير والأخلاق والمقدّسات، بأن أُسلّم الحوار الصحفي مع الآنسة إيفانا الرهيبة، كاملاً، في الساعة الرابعة من بعد ظهر السبت الموافق ٢٨ ديسمبر عام ١٩٩١، وإلاّ فمن حق إيفانا أن تشهّر بي علانيةً وعلى رؤوس الأشهاد والأشجار..."

٢٥ - ١٢ - ١٩٩١

التوقيع: محمود درويش

• **خذيها، هذه لكِ. أنتظركِ بعد ثلاثة أيام.**

- هل ستسلّمني الموضوع مسجّلاً؟

• **لا، مكتوباً، سأدوّن الأجوبة بخط يدي لأهديكِ إياها!**

- بعد أن أثار جوابه إستغرابي: هل تكتب الأجوبة لأن لا ثقة لك بي؟

• **ما دخل الثقة؟ أفكر بمشروع آخر بعد نشر الحديث في المجلة. لقد أحببتُ بعض أسئلتكِ، وتخيّلتُ أجوبتها بخط يدي، في مكانٍ آخر، في وقتٍ آخر، وفي شكلٍ آخر. سنتكلّم في الموضوع لاحقاً...**

تعالي نتمشّى قليلاً، سأوصلكِ حتى مترو تروكاديرو.

لبسنا معطفينا وخرجنا. كان الطقس بارداً وأكثر كآبةً من بعد الظهر:

• **إنها التاسعة، ستكملين السهرة وحدكِ؟**

- بصراحة؟

•مستغرباً: "**أكيد بصراحة، في داعي للكذب؟**"

- سأدوّن كل ما دار بيننا من أحاديث. كلماتكَ لا تزال حاضرة بقوّة في ذاكرتي، سأكتبها حرفاً حرفاً كي لا أنساها. وهذا ما فعلتُه بعد موعدنا الأول.

ظل صامتاً ثم علّق: "**كنت متوقع!**"

تمشّينا ساعةً من الوقت، ربما أكثر وربما أقل، لا أعرف... مرّ الوقتُ سريعاً، وبدا لي درويش خفيفاً في مشيته كالعصافير. كان يسبقني أحياناً بخطوة أو باثنتين، فيمنحني فرصة أن أتأمله يطير ... فرحاً بالمطر. عندما وصلنا إلى باب المترو سألته بقلق وبشيء من الخوف:

- كيف ستعود الآن وأنتَ وحدكَ؟

• **كيف سأعود؟ كما أتيتُ! أتظنين أن محمود درويش لا يأكل ولا يشرب ولا يسير على الطريق وحده؟**

- معكَ حق، ولماذا أخاف؟ باريس آمنة: "بون نوي ... وميري كريسميس".

• **"ميري كريسميس رهيبة ... الليلة كمان عيد، أكتبي بكرا".**

وودّعني عند مدخل المترو: **"يلا إنزلي يا بنت وإنتبهي عحالك... الدني ليل، بس توصلي طمنيني".**

٢٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١

كانت الساعة السادسة مساءً عندما زرتُ محمود درويش للمرة الثالثة. اليوم هو موعد تطبيق نص الوعد المكتوب بتسليم المقابلة كاملة... وأنا عوض الرابعة، كما اتفقنا، منحته وقتاً إضافياً افترضتُ أنه قد يحتاجه لوفرة الأسئلة:

• ادخلي رهيبة!

[ممسكاً بقلم الحبر، ومتنقلاً بقدمين حافيتين]

– هل أزعجكَ؟

• لا، لا... لقد أنهيتُ كتابة الجواب الخامس. سأبقي على ١٢ سؤالاً فقط، كي لا أتخطّى الـ٢٥ صفحة!

– ٢٥ صفحة، تكتبها لي؟ وآخذها معي؟

• طبعاً هي لكِ! إنها هدية عيد الميلاد!!

أخذتُ ما أنجزَه من أجوبة بين يديّ، وقرأتُ منها جواباً:

- هذه ليست هدية، إنها أشبه بسيرة حياة ثمينة جداً...

ما أجملها!!

كيف أشكركَ أستاذ محمود؟

• **هذه الصفحات أعجبتني فعلاً، وتليق بكتابٍ يضمّ كتاباتي بخطّ يدي، تجاورها لوحات أو صور فنية.**

- فأجبتهِ دون تردد: "بتخلّيني صممّو ونفذو أنا؟"

• أجاب مبتسماً: **لِمَ لا ؟ أنتِ تحبيّن الفن التشكيلي وتحسنين اختيار اللوحات والصور... لكن دعيني الآن أتابع الكتابة!**

- إذاً، ماذا أفعل؟ أين تحبّ أن أختفي؟

• **حضرّي لي القهوة، وأنا سأُكملُ في غرفة المكتب.**

- هل يمكن أن أقاطعكَ لأعطيكَ القهوة؟

• **"ادخلي عليّ ولا تهتمي للموضوع"... حين أكتب النثر، أنزعج أقل!**

[وحدي في المطبخ... لأول مرة]

رغم طبعي الحيادي، وغير الفضولي، وجدتني أمام رغبة هائلة في البحث والتنقيب أينما كان، وهذا ما فعلتُه...

فاستوقفتني الزوايا الفسيحة الفارغة والشديدة النظافة:

أين يضع أواني المطبخ كلها، إن كنتُ لا أرى غرضاً ظاهراً منها؟

هل هذا مطبخ أم متحف؟

فتحتُ الخزانة الأولى المخصّصة للصحون والأكواب الأنيقة، أسترقُّ النظر إلى داخلها، فإذا به ورائي، يدخل كالظل، ليصرخ عالياً في ظهري:

• **"الركوة مش هون مكانها، إيفانا!!"**

كدتُ أفقد وعيي من هول الصدمة:

• **"إيش بدك بالخزانات بتفتشي فيها؟ الركوة هونيك!"**

ثم ضاحكاً من أعماقه: **"لو ما بتعملي شي غلط ما خفتي هيك!"**

– "غلط شو"؟ أبحث عن الفناجين وعن كوب لأسكب لك الماء.

• **أعتذر إن أخفتكِ، لكني جئتُ أقول لكِ إنني سأكتبُ اليوم ثمانية أجوبة وأكمل الباقي غداً!**

– "ممتاز، بس بكرا في رعبة متل اليوم؟"

• "... تستاهلي! يلاّ خلصي القهوة وبلا بحث وتحرّي شمال يمين، سآخذ فنجاني معي!"

– اتفقنا، ولكن لماذا ألغيت ٨ أسئلة؟

• لأني سبق وأجبتُ في مقابلات أخرى على أسئلة شبيهة أو قريبة منها.

ثم مبدياً ملاحظته على كيفية إعدادي القهوة:

إنك تعدّينها بسرعة، وتضعين البنّ فوق مياه باردة... هذه أسوأ طريقة لإعداد القهوة!

وتابع ممازحاً:

"إنت أسوأ بنت حضّرتلي قهوتي ببيتي!"

– لا، لا... أعتقد أنني حضّرتُ لكَ أطيب قهوة... ولن تنساها!!

بعد أن أضاف إليها السكّر حمل فنجانه ليختفي بسرعة في المكتب، وهذه المرّة أغلق خلفه الباب.

بقيتُ وحدي في الصالون أراقب التفاصيل من بعيد، وكنتُ أخاف أن يباغتني ثانية. أخرجتُ ورقاً أبيض من حقيبتي ورحتُ أدوّنُ حديثاً بيننا، عمره دقيقتان...

ورغم تخوّفي من دخوله المفاجئ لم أمنع نفسي من تأمّل المرآة العربية عند المدخل وبعض العناوين في مكتبته، فإذا غالبيتها شعرية، وباللغتين العربية والإنكليزية... فوق أحد الرفوف، تأمّلتُ العديد من بطاقات المعايدة الميلادية، والسياحية من بلدان مختلفة، وكلها طبعاً... من معجبات!

لم ألمس شيئاً هذه المرة، بل قرأت عن بُعد، ثم عدتُ إلى قواعدي سالمة، أقرأ في محاضرة سأمتحنُ بها بعد أسبوعين.

[كيف فعلتُ ما فعلت؟ هل أنا مجنونة؟]

• بعد دقائق ظهر ليسأل: **السؤال حول المسافة والوصول ضروري؟ "فينا بلاه؟"**

– أكيد لا أستاذ محمود. هذا بالذات ضروري!

• "رح إتركو كرمالك! ضجرانة؟"

– أبداً، أنا أدرس... "خُذ وقتك"!

• أعود بعد نصف ساعة على الأكثر، ونكمل غداً!

في تلك الأمسية أخفى الأوراق التي صاغها في درجه:

– هل يمكن أن أراها؟

• تأخذينها غداً، لأني سأكملها وأرتّبها.

- دعني أقرأ... ولو جواباً واحداً!!

• (بعد القراءة): تعالي نتمشّى قليلاً خلف الساحة. أخبروني أنّ الزينة الميلادية هناك رائعة، لم أرها جيداً بعد. وتابع: نتعشى صيني ثم تذهبين!

- صيني؟ ألم تسمع في الأخبار؟

هناك مطاعم صينية في باريس تطبخ الكلاب والقطط!

• "إيش؟ لكين لازم أعرف شو كانوا بيحطولي بالأكل، يلا تعالي!"

من جديد اجتزنا الساحة الباردة والشوارع والجادّات والأحياء، وصولاً إلى التروكاديرو، سيراً على الأقدام. لم نتحدّث في تلك الليلة إلا قليلاً... كنا نراقبُ زينة الكنائس والأشجار العالية، فبدت الساحة المضاءة قطعة من السماء على الأرض:

- باريس تكون أجمل في الليل.

• انظري إلى الأضواء، عندما تتبلّل بالمطر تصير ظلالاً!

تمشيّنا وتبللّنا كتلك الأضواء بمطر كانون. تحادثنا في ما

يصنع روعة المدينة، وقد احتمينا بمظلته... وبعد أن تأبّط ذراعي سألني:

• هل تحبين المطر؟

– كثيراً، ويذكّرني الآن بقصيدة لشاعرٍ لبناني صديق، هو فلاح أبو جودة، كتب في وداع باريس: "منتودّع وباريس ماحيها الشتي"...

• "صحيح، هو الشتي إللي بيمحي الحلم الجميل"، وبعد صمت طويل:

" كل واحد بس بدّو يترك باريس بحس إنها لازم تخلص أو تنمحي من بعدو"...

– ظننته يطلبُ من المطر أن يمحو الذكريات فقط، ليخفّف من وطأتها.

• الشعر لا يحمل معنىً واحداً. يعبّر الشاعر أحياناً عن أفكار كثيرة مستخدماً لها عبارات قليلة، لكنّ النقاد نادراً ما يكتشفونها... النقاد المحترفون اليوم يهتمون بشكل مقالاتهم أكثر من مضمونها.

– خصوصاً عندما يتناولون أعمالكَ...

• "بيهتموا بشكل المقالة لأن بدي إقراها (ضاحكاً). أيام بكتشف مقالات نقدية رائعة بالشكل، بس ما بتحمل أكتر من فكرتين زغار... النقاد صايرين مفذلكين ومقالاتن صعبة، إذا أنا ما إفهمهاش، كيف الناس العاديين بدن يفهموها؟"

- من خدمكَ وقرّبكَ من الناس أكثر، النقد أم الغناء؟

• الاثنان. لكن لو كنت ناقداً لما استوقفتني الأمور التي يهتمّون لها، بل لبحثتُ أكثر في أسرار النص!

- ماذا كنتَ قلتَ عن "أرى ما أريد"؟

• هو كتاب تلال، "كلّو عالي. كنت بحب شوفو بلوحات. نيال الشاعر إللي في حولو رسامين كبار... بتعرفي إنو أنا وزغير كنت حابب كون رسام؟"

- "رسام؟ وكيف صرت شاعر؟"

• "لأن ما كان معي ثمن الألوان... كان أسهل علي إحصل عالورقة والقلم وإكتب!!"

- "زعلان لأنك خسرت الرسم؟"

• "كتير... أصلاً أنا وثقت فيكي بتلات دقايق لأنك بتكتبي بالمجلة عن الرسم والرسامين. الرسم ضعفي!"

• مقاطعاً : آخر لوحة اشتريتها كانت للفنان بول غيراغوسيان، من معرضه الباريسي الآخير. وضعتها في صدر الدار، وأتأملها كل يوم!

- أنت وبول، كم تتشابهان!!

فردّ بتأثّر واضح: **"ما نحنا طلعنا من نفس المكان، وعشنا نفس المأساة... وهالكلام قلتلو ياه بس إلتقينا. وجاوبني بول:**

"يا محمود، ما حدا بالعالم بيفهم إللي عملناه وعم نعملو، إلا ناسنا المشتركين. إللي عشناه كان أكبر من إنو نقدر نشرحو لناس مرتاحين ما عرفوا الاضطهاد والحروب بحياتن".

وتابع درويش: **"لازم تتعرّفي على بول شخصياً"**

ثم استدركَ: **"إنتِ بعد ما بتعرفيه؟"**

- "أكيد بعرفو. مين ما بيعرف بول غيراغوسيان؟"

وتابعتُ: ومرسيل خليفة أستاذ محمود... ماذا أضافت موسيقاه إلى أشعاركَ؟ هل تراه ذهب إلى أبعد من الكلام؟

• لقد منح قصائدي فرصة حياة مختلفة، وحرّرها من العيش المؤبّد بين دفتي كتاب: "بحبو لمارسيل بس مش دايماً بعرف قلّو!!"

آه، الآن تذكرت... أمس استمعتُ إلى أغنيات لجيلبير بيكو، هل تحبينه؟

- كما أحب فيروز وأزنافور وبريل...

***Et maintenant, que vais-je faire?**

[والآن، ماذا عساي أفعل عندما ترحلين؟] وأغنية "عندما مات الشاعر"...

Quand il est mort le poète...

• الأولى سهلة، أما الثانية فأصعب! ماذا تقول أغنية الشاعر؟

- [عندما مات الشاعر بكى أصدقاؤه ... وبكى العالم.

دفنوا نجمته في حقل واسع ... في حقل واسع من القمح].

المطعم الصيني "قصر التروكاديرو"

7, Avenue d'Eylau

مطعمٌ فخم وهادئ يبعد خطوتين عن مترو التروكاديرو وبضع خطوات عن جادة كليبير.

• نسيت أن أسألكِ: هل تأكلين الصيني؟

(النادل مرحّباً... بالفرنسية):

– أهلاً موسيو درويش، طاولتكَ حاضرة، تفضّل!

•درويش مستفسراً (باللغة الفرنسية، المطعّمة بالإنكليزية):

موسيو، أعتذر عن سؤالي سلفاً، ولكن هل صحيح أنكم تعدّون لنا الكلاب والقطط؟

ارتعد الشيف من هول الاتّهام: لا يا سيدي العزيز، نحن لا نأكل لا الكلاب ولا القطط ولا أي نوع من اللحوم غير المعتمدة في فرنسا، اطمئن (...)

بعد التحقيق والمساءلة تابعنا كلامنا الآخر بهدوء، وأقنعنا أنفسنا بمصداقية الشيف:

- هل تأتي دوماً إلى هنا؟

• **مع بعض الأصدقاء فقط، وغالباً ما أشتهي "موايز" لبنانية في مطعم ميساك، الشيف الماهر في تتبيلة الكفتة... هو لا يبعد كثيراً عن كليبير!**

- أتأكل الطعام العربي عادةً؟

• **لا، بل أرغب في اكتشاف الأطباق الجيّدة، ولو كانت صينية!**

بعد أن طلبَ أشكالاً وألواناً من كل الأصناف، سألته:

- هل تنتظر أحداً؟ لمن كل هذا الطعام؟

• **إنه لنا، وهل من أحد غيرنا؟**

وراح يشرح لي خصائص كل طبق، فبدا لي خبيراً في الموضوع:

• **"أنا ميّت جوع"، لقد أتعبتني بأسئلتكِ الطويلة! الآن تفضّلي، هل تريدين فخذ كلب؟**

دوّى ضحكنا في المطعم، وأضحكنا معنا زوجين عربيين كانا يجلسان إلى جانبنا ويأكلان مثلنا بحذر، ففهما ما كان

يرمي إليه درويش. بدايةً، تبادلا معه أطراف النكتة، ثم الحديث، إلى أن دعاهما ليشاركانا العشاء. وهكذا أمضينا معاً سهرة ممتعة تحدثنا خلالها عن باريس وهمومها، إلى أن فاجأني بسؤاله:

• "بالعادة بتاكلي منيح؟ شو بطعموكن بالمطاعم الجامعية؟"

- في هذه المطاعم المكتظة بالطلاب نأكل لنعيش، لا أكثر ولا أقل! لكن يحصل أن ندلّل أنفسنا أحياناً، أنا وصديقتي آدا، بالكوسكوس واللبن و... سلطة الأنديف.

وأنتَ أستاذ محمود: ماذا تأكل في باريس؟ من يحضّر لكَ الطعام؟

• العازب يتأرجح دائماً بين أصنافٍ قليلة يتقن تحضيرها وموائد المطاعم. وفي النهاية، كلنا نشتاق إلى طعامنا المنزلي:

"أيام كتير أنا بحضّر أكلي، وقريباً رح إعزمك إنتِ ورفيقتك تدوقوا بعض الأكلات من إيديّ".

هنا سأله الرجل الغريب: أستاذنا، ألم تكن تفضّل العيش في دولة عربية؟

• أنا سعيد جداً في باريس . إنها مرحلة غريبة ومهمة في آن،

فيها الجمال والتأليف والوحدة والهدوء والكسل الجميل. باريس مثالية للكتّاب، وكنت أكون أكثر سعادة لولا السؤال:

ماذا بعد باريس؟ وحتى أنتِ - قال لي - سيقلقكِ السؤال عينه: ماذا بعد باريس؟

ثم تابعنا حوارنا، بعد أن غادر الزوجان المطعم وشكرا درويش على دعوته، فاستعدت طرف الحديث الذي انقطع:

- أنتَ على الأقل، هل تعرف أين ستكون وجهتكَ المقبلة بعد باريس؟

• ربما تتحقق بداية عودتي بعد سنتين أو ثلاث على الأكثر. شعور أتمنى ألاّ يخذلني.

- إلى فلسطين؟

• "إنشاء الله! كلّو بيترتّب"

- هذا خبر رائع... "بس في كتير عواصم رح تشتقلك".

• سأزور بيروت وباريس باستمرار، وسائر العواصم التي عشتُ فيها.

- ستعود إلى والدتك أخيراً؟ أمس قرأت عنها بين الأوراق.

لماذا كانت تضربكَ هكذا؟

• "هي بس كانت تضربني؟ ولك أنا إللي كنت شقي. مرّات ضعت ومرّات وقعت عن الحصان. كنت ولد زغير وجرحت جبيني، بعدو الندب لهلق".

كشف لي عن جبينه، وكم بدا فرحاً بذكرياته:

• "كانوا الأولاد من زمان كتار، ولما الواحد يضيع كانوا الأهل يكتشفوا غيابو بعد نهار كامل... وأنا كمان بعمر ٥ سنين ضعت عطريق عكا. كان بدي ألحق أمي، وما عرفت إرجع".

- ولما عدتَ إلى البيت في المساء كانوا يبحثون عنكَ في الآبار!! أمكَ فرحت أولاً،

• وضربتني ثانياً... آه منها!

عتبنا عليها غيابياً من مجرد تصوّر المشهد، ثم تابع:

مرة زارتني أمي، وكنتُ محاطاً ببعض الحرس، فسألتني: من هؤلاء؟ أجبتها: حرس! فجاوبتني: انتبه يا بنيّ، إن قررت جهة ما التخلّص منك واحد من هؤلاء سوف يقتلكَ!

- معها حق!! يبدو أنك تشبهها في سخريتها!!

• إلى حدّ كبير (...)

- وبعدما انتقلتُ في حديثنا إلى سؤاله عن الحوار:

هل آتي غداً لآخذ الأجوبة كاملة؟

• أجاب: "أكيد، وصار لازم أنهيها، لأني كتير مشغول الأسبوع المقبل".

- تحضّر لكتاب جديد؟

• حالياً أنهي قصيدة الرجل الأبيض والهندي الأحمر... وفي الديوان، أندلس وكمنجات وشتاء ريتا الطويل (...) "رح يصدر ببيروت قريباً عن دار الجديد".

لم نغادر المطعم قبل المفاجأة الأخيرة: الشاي بالياسمين.

• صحيح أنّ طعمه لذيذ - قال - لكني أحب رائحته أكثر!

[كانت تولد في تلك الأثناء قصائد **"أحدَ عشرَ كوكباً"**، وكان لي حظ رؤية قصيدة "للحقيقة وجهان والثلج أسود"، موّزعةً فوق مكتبه، حين عدتُ في اليوم التالي لاستلام الأجوبة كاملة]

- "فيّي إقرأ هالورقة؟"

• **نهرني بعصبية لافتة: "أكيد لا، تعالي معي، ما تخربطيلي الصفحات... أتركيها".**

• **ثم تابع مرتبكاً: "خلّصت موضوعِك وفرحان بالأجوبة. إنشاءالله تحتفظي منيح بالأوراق وما تضّيعيها".**

ثم قررَ أن يلفّها بإحكام، في مغلّف بلاستيكي: **"كي لا يبلّلها المطر ويذهب تعبي في تحرير ٢٦ ورقة سدى".**

- جميل أن تطبع كتاباً، كما قلتَ، يضمّ مخطوطات بخط يدكَ!

• **صحيح، لكن لا وقت لدي لذلك.**

- هل يمكن أن أهتمّ يوماً ما بنشر هذا الكتاب؟ قد يضم المخطوطة هذه، بالإضافة إلى الصور الفوتوغرافية التي رأيتَها وأعجبتكَ. قد نضيفُ إليها صور باريس: ساحة منزلكَ، كليبير، بواسيير، التروكاديرو، حائط الكنيسة، الحمامات الرمادية والمطر الذي تحب ومقعد الحديقة و... الأرصفة الخريفية والمترو.

• **"ياريت، ليش لأ؟" لننشر الموضوع في المجلة أولاً وسوف نرى. وتابع: "مش مهم الصور المهم النص!"**

- أستاذ محمود، قل لي، كيف أشكركَ؟

• اشكريني في تحضير الشاي بالياسمين!

وأنا أعدُّ الشاي الذي حملناه معنا من المطعم الصيني:

- حياتكَ الباريسية شاعرية مرفهّة. هل من مكان بعد في يومياتك للحزن العادي؟

• يوميات حزني العادي لم تكن حزينة، بالمعنى التراجيدي.

كل ما كتبته من قصائد لم يولد من حزنٍ أسود، بل من فرح غامض حزين لم يفارقني أبداً حتى هذا العمر.

- حتى في طفولتكَ، حين هُجّرتَ؟

• خصوصاً في طفولتي. لم أكن أشبه يوماً الأطفال المهجّرين، ظننتها مغامرة صعبة ونجتازها قريباً. الأطفال في قوافل التهجير لا يهابون المخاطر كالآباء والأجداد.

- يعني كنتَ طفلاً سعيداً؟

• في فلسطين طبعاً، ثم في لبنان، كانت حياتنا صعبة وإنما ممكنة وغير مستحيلة. ذكرى الخسارة أصعب من حياة الخاسرين، وكما كتبتُ لكِ، آلام الموت أصعب من الموت. الحزن حالة شديدة الالتباس والغموض.

- ما أكثر ما يجعلكَ حزيناً؟

• بعد تفكير: يحزنني عدم قدرتي حالياً على ترتيب علاقاتي بالطريقة التي أتمناها. تصوّري، يمكن أن أتخلّى بسهولة عن أشخاص رائعين أحبهّم، فقط لأني غير قادر على الاحتفاظ بهم أو الاستمرار معهم.

- إذا كان التنازل عن أشخاص تحبّهم يحزنكَ، لماذا تتخلى عنهم إذاً؟

• لأنّ كل ما يتحقق لا يعود حلماً... الشاعر أو الفنان يختنق خارج الحلم!

- ألهذا السبب لم تكرر تجربة الزواج؟

• بكل تأكيد، بالإضافة إلى أسباب أخرى. إلا أذا صادفتُ امرأة إستثنائية تغيّر لي رأيي في الموضوع، حينها فقط أتزوجها من دون تفكير!

- وكيف تكون المرأة استثنائية بنظركَ؟

• إذا كانت ذكية شفافة وصامتة... روحٌ تسير على قدمين!!

- صامتة؟ يعني ممنوع تحكي؟

• لا تبالغي، تعرفين ما الذي أقصده... المرأة الثرثارة نكبة!

- والجمال، أليسَ شرطاً أساسياً؟

• مستدركاً: **"كأنك بتعملي معي حوار تاني؟"** ثم تابع ممازحاً: **"هيدا السؤال مش كتير ذكي... بعمرك شفتي شاعر ما بشوف الجمال؟ بعدين ليش بتسألي؟ مالك ومالي؟"**

- فأجبته بكل جديّة: "يعني، لازم أعرف نسبة حظوظي".

وضحكنا طويلاً من أسئلتي المحرجة له... تقابلها أجوبته الكاريكاتورية الساخرة،

فارتأيتُ أن أختم بسؤالٍ يحزّ في قلبي:

- كيف تخبر امرأة تحبُّها أنكَ لم تعد ترغب في لقائها؟

• مستغرباً السؤال: **"وهل أنتِ من جمعية الدفاع عن حقوق الحبيبات؟"**

- أحبّ أن أعرف... ماذا تقول؟

• **أنا لا أقول.**

- هل جرحتَ نساءً كثيرات؟

• **لم أجرح إلا نفسي!!**

كانت رائحة الشاي بالياسمين تعطّر المكان، فاقترح أن نسمع بعض الأغنيات لفيروز، وعلى وقع "مريّت بالشوارع" دخل مكتبه، ثم عاد منه وهو يرتّبُ أوراقاً، كانت مبعثرة قبل هنيهة فوق طاولته، ليقرأ لي مطلعاً حزيناً علق دهراً في خيالي:

[للحقيقة وجهان، والثلجُ أسودُ فوق مدينتنا

لم نعد قادرين على اليأس أكثر مما يئسنا، والنهاية تمشي إلى السور واثقةً من خطاها]

• وبعد أن أوقف القراءة فجأةً: "**حبيّتيها؟**"

- "حبّيتها كتير"... لم نعد قادرين على اليأس أكثر مما يئسنا:

"أستاذ محمود، شو في بعد اليأس؟"

• "**في يأس أكبر**"...

وبعد أن غرق صامتاً في مقعده للحظات طويلة، كسرتُ صمتنا وبحتُ له بما يشبه الإعتراف :

- أتعلم؟ عندما كنتُ فتاة صغيرة حلمتُ، بسبب يوميات أحد كتبكَ وربما أيضاً بسبب الأغنيات التي نسمعها الآن، بأن ألمحكَ ولو للحظة واحدة، فإذا بكل

جمعية القديّسين تترأف بي وبدعائي وتحقق لي أمنيتين: **الأولى** أنك صدّقتَ حلمي ووثقتَ به، و**الثانية** أنك قبلتَ أن تحققَ أحلامي بكَ بكل رضا؛ فكتبتَ أمامي وتركتَني أتجوّلُ في البيت، أبحثُ في أسراركَ وصوركَ ولوحاتكَ،

[رغم انزعاجكَ الواضح من أن يعبثَ أحدهم بأغراضكَ]

حضّرتَ لي الطعام... والقهوة المرّة والبابونج والشاي بالياسمين... أكثر من مرة، وبسرعة أسطورية رفعت الكلفة بيننا:

• **هل تحضّرين لي قهوتي؟ [أحضري معها الزنجبيل بالسكّر]**

أخبرتَني، بفرحٍ لا يعادله فرح، عن أمّك حورية، أبيك سليم، جدّك حسين، وكل الأخوة والشقيقات وقلتَ عنكم: "**نحن نشبه بعضنا كالتوائم**".

كنتَ كلما دعوتني إلى بيتكَ تتقصّد أن تتحدّاني بطاولة الزهر(النرد)، وكنتَ تزعل ولا تصدّق أنّ من نعتتها بالـ"مجدوبة" في لعبة "الفرنجية" كانت تغلبكَ دائماً وأبداً بدششها العجائبية والدبش والجوهار... و"توزّك" لكَ،

وتتباهى بانتصاراتها المتكررة عليك، فتحرد في كل مرة وتكرّر:

لا تفرحي كثيراً، إنها مسألة حظ!

معكَ حق، أستاذ محمود...

كانت مسألة حظ أن ألقاكَ ذات خريفٍ باريسيّ، وأن تفتحَ لي، طوعاً، باب الحوار معكَ على مصراعيه، دون أي مقدمات: زيارات وأحاديث ونزهات كنتَ خلالها تتأبط ذراعي لتسمعني كلاماً، تتمنى أي امرأة أن تسمعهُ!!

كم كنتُ سعيدة في تلك النزهات، في مسايا باريس الغامضة، (كما كنتَ تصفها)، و لم أخفِ عنكَ سعادتي يوماً:

- [**أين أنا؟ مع من؟ هل أحلم؟**]

كنتَ تضحك وتضحك... وأقرأ سعادتكَ، تولدُ من سعادتي الخيالية فيكَ.

مرةً، حين فاجأنا رجلٌ عربي ونحنُ نبحثُ في العتمة عن زر معطفي الأزرق الذي سقط وضاع بين أوراق الرصيف:

- أستاذ محمود؟ هل هذا أنتَ؟ هل تبحث عن شيء؟ كيف أساعدكَ؟

أجبتَه: لقد سقط قمر معطفها بين الأوراق،

ثم استدرتَ واقترحتَ عليّ:

لَمِ لا نتركهُ هنا؟

أكملنا السيرَ معاً، وتركنا خلفنا زر معطفي الأزرق بين أوراق الرصيف، رصيف بواسير، لأسألكَ للمرة الألف:

- وأوراقنا؟ ماذا أفعلُ بها؟ ومتى؟

فرددتَ أمامي كما في كل مرّة:

ليس الآن... خبئيّها معكِ وحافظي عليها جيداً!!

أنتِ وحدكِ ستعرفين متى يحين الوقتُ. ربما بعد ٢٠ عاماً أو أكثر...

ليكن كتاباً أنيقاً، مكمّلاً بالصور أو الرسومات المناسبة، ولا مانع من أن يضم ذكرى نزهاتنا في شوارع "السازيام" الغامضة، فقط كي لا تُنسى مثلنا.

هذه النزهات... قريباً ويمرّ عليها الزمن،

حينها لن أكون ... ولن تكوني.

بيروت، ٢٨ كانون الثاني ٢٠١٣

إيڤانا مرشليان

سألتُ محمود درويش:

١- الأرض الأولى هي الأم الأولى. هي الحب الأول. هي أيضاً الأغنية، التي ما أن ترافق ولادة أبنائها حتى تصبح صورة حقيقية لوجه تلك الأرض. فلو ذهبت الأرض تبقى الأغنية، وأغنية فلسطين اليوم هي الأرض الموعودة.

لو أعدتَ إلى ذاكرتك صورتك الأولى هناك،

أيّة مشاهد تلتقط؟

أيّة أحاسيس ترجع إليك؟

حدّثنا عن محمود "الصغير والجميل"، كما تقول في إحدى قصائدك، وعن الريح، وعن سكناكَ جذوع الحكايات والسنديان...

علي أن أبتعد عنه أكثر، في الزمان وفي المكان، أو أن أدنو منه أكثر لكي أراه بشكل أوضح، ولكي أروي سيرته. فها هو ما زال معي، أو فيَّ، يمدّني بالصورة الأولى للأرض الأولى كما كانت، لا كما أصبحت عليه. وما زال يحمل الأرض لعبة، وما زال يرضع من ثديها. وما زال يحن للعودة إلى بيت الأرض الأول، أو إلى أرض الأرض، إذا جاز التعبير.

والريح... ما زالت هي الريح، أنصب عليها خيامي التي لا تتوقف عن الإقتلاع. ما زالت تهبُّ من كل ناحية، وخاصة من ناحية القلب، وكأنني لم أسكن شيئاً سوى الريح التي هي تحتي - كما كان المتنبي يقول - أو فوقي كما أحاول أن أقول. فهل في اللغة ما يكفي من الأرض كي نعرف سكنانا؟ ربما كان في هذا التعويض ما يبرّر إستمرار الأغنية، ولكن للهوية شرطاً أكثر صلابة، إنه شرط الأرض. فهل تبقى الأرض إذا ذهبت الأغنية؟ أو على العكس؟

لا أرغب، أبداً، في النظر إلى مادية الأرض وإلى معانيها من هذا

المنظور. كذلك لا أرغب في النظر إلى سماء الأغنية من منظور هذا التيه. وإلاّ، لتحوّل الصراع الإنساني كلّه إلى سباق على إنجاز الهزيمة، على خسارة الواقع من أجل كسب التعبير عن الواقع المفقود أو الأرض المفقودة.

لا، لست شاعراً عبثياً إلى هذا الحد، فأنا أريد الأرض وأريد الأغنية أسوة بجميع سكان الكرة الأرضية.

أما الذي يحملني وأحمله، الطفل الذي كبر كثيراً وصار "أنا"، فإنني أريد أن أرجعه إلى أمه، إلى بيته على أرضه، حتى لو لم يعد لا صغيراً... ولا جميلاً... وليلعب هناك كما يشاء على جذوع الحكايات والسنديان، وليلعب في اللغة إذا أراد هناك، أو في أي مكان آخر. فعندئذٍ، عندما يعود يصير قادراً على الرحيل الحر من الأرض الموعودة إلى الأغنية الموعودة...

٢ – "أنا أعرف – تقول – أنّ الأرض أمي..."

تركتَ وجهكَ فوق منديلها، حملتَ الجبال في ذاكرتكَ ورحلت.

وحين راودتكَ أحلام العودة كتبت: "يا أمنا انتظري، إننا عائدون"...

فكأنكَ لا تريد من بلادكَ التي ذبحتكَ غير منديل أمكَ وأسباب موتٍ جديد. تحنُّ إلى قهوتها، إلى لمسة يدها وإلى خيط يلوّح في ذيل ثوبها. إنّ كل قصيدة تتناول أمكَ نجدكَ فيها "سيّد الحزن" من دون منازع. وكأنك تحلم باسترجاع الأرض، فقط لتهديها إياها، لتحققَ لها حلم العودة.

ماذا تروي لنا عن أمكَ، سرّ قصيدتكَ وحاملة نجوم طفولتكَ؟

أمي هي إمي. ولو استطعت أن أفكّ خصرها وضفائرها من لعنة الرموز لفعلت. نعم، تركت وجهي على منديلها، لأني خارجها أفقدُ ملامحي. وعندما لا أطلب من كل هذا المأساوي، الذي هو ما يدور في بلادي وعليها، غير منديل أمي، فلأنني أسعى لإسترداد ملامحي الأولى، لإسترداد إنسانيتي في صورتي كما هي، لا كما ترسمها الجريمة الكبرى التي أرتكبت في بلادي من ناحية، ولا كما ترسمها البطولة من ناحية أخرى.

في أمي، كلما نأت، ذاكرة الأرض الفلسطينية ومشهد تاريخها المتنوّع، والثابت على مرأى من تحوُّل الزمني وبقاء الروحي. والأرض، التي هي أمي، هي الأرض ذات الفصول الأربعة، ذات البحر الأبيض وذات البحر الميت، هي الخارطة الحيّة لكل الشجر والعشب والزهر والدم. هي الباقية، وكأنما بلا إكتراث بالعابرين من الغزاة حتى لو صار بعضهم آباء أو إدعوا الأبوة. ولكنها هي بأمومتها التي لا يشك بها مؤرخ أو طبيب أو مهندس زراعي، هي أمي.

لستُ "سيّد الحزن" في حضرتها، فهي، في تحرّرها من رموزها، سيّدة قوية، وقاسية أحياناً، وليس في وسع الإبن أن يكون سيّد أي شيء في حضرة أم قاسية. كنت أظن، وأنا صغير، أنها لا تحبني.

لا أتذكر قبلاتها وهداياها إلاّ في سجني الأول. وبعدما تكررت سجوني تكررت زياراتها وقبلاتها وهداياها، لأدرك أن وراء قسوتها المصطنعة أماً عاطفية، هشة، وجميلة، ولكنها أيضاً لاذعة في السخرية. وعندما قابلتها، قبل أشهر في القاهرة، عثرت فيها على راوية بارعة... لا تتوقف عن نقد السياسة والسياسيين. وحين عاتبتها: لماذا كنت تضربينني كثيراً وتحملينني المسؤولية عن كل ما يجري في الحارة؟ ضحكت لتوحي لي بأنني كنت جامحاً وكثير النكد. وعندما سألتها إن كنت سأعود إليها في بيتها، رفعت دعواتها إلى الله وأضافت: إن غرفتك ما زالت كما تركتها، بمكتبتها ولوحاتها، لكننا أضفنا إليها صور زوجاتك وأنزلناها، فمتى نثبّت الصورة الأخيرة؟ وطالبتني بأن أنجب طفلاً وأرسله إليها.

وقالت: صحيح، إن البيت لم يتغيّر. ولكن كل شيء خارجه قد تغيّر.

٣ - من بين النساء، تذكر دوماً ريتا ونذكرها.

ريتا... في قصائد لديك وأغنية: "ريتا، عيناك ضائعتان في صمتي وجسمكِ حافل بالصيف والموت الجميل"... ريتا التي تهرب، ولا يتعبكَ في الليل إلا صمتها حين يمتد أمام البيت كالشارع، كالحي القديم.

من هي ريتا، التي كنّستها المدينة مع باقي المغنين والتي لا تزال صورتها تأتيكَ بعد ثلاثين عاماً مع سنبلة أكملت عمرها في البريد، وراء الخريف البعيد؟

ريتا، ليست اسم امرأة. هي اسم شعري لصراع الحب في واقع الحرب. هي اسم لعناق جسدين في غرفة محاصرة بالبنادق. هي الشهوة المتحدّرة من الخوف والعزلة دفاعاً عن بقاء كل من الجسدين في ظرف يتحاربان فيه خارج العناق.

منذ خمسة وعشرين عاماً يوقظ الشتاء موقع ذلك الوجع، حيث لسعتني الأفعى. لا، لم يكن حباً، بقدر ما كان حادثة ومفارقة، واختباراً لإنسانية الجسد في تحرّره من الوعي.

كأنها، كأن هذا الاسم كان يغنّي، بعد الصهيل، ذلك الصمت البعيد البعيد الذي يأخذ كل واحد منا إلى منفاه الذي لا يتجاور مع منفى الآخر. كان يغنّي بلغة لا أفهم منها غير اغترابنا وتلاشي الظل في الظلام. ولكننا ندّعي ملكية الزنبقة ذاتها.

لم يكن في وسع هذه الرغبة أن تنطفئ تدريجياً. كان عليها أن تحترق وأن تحرقنا. وكان على كنّاسي الشوارع أن يكنّسوا الحادثة ومغنّيها في الصباح.

لا لأن حكايات شهرزاد قد انتهت، بل لأنها قد بدأت. ولأنه

ليس في وسع الجسد أن يسرق الجسد كثيراً، على مرأى من بنادق الحرّاس.

ولكن، من هي ريتا؟ سأبحث عنها مرة أخرى في جسدي، وربما تستطيع قصيدة ما أن تجدها... ربما!

٤ - البعاد، التشرد، الحنين... شكلٌ من أشكال الموت لديك، لكن آلام الموت أصعب من الموت بحد ذاته. لذا قلت: "أيتها البلاد القاسية كالنعاس، قولي مرة واحدة انتهى حبنا، لكي يصبح قادراً على الموت والرحيل. موتي لأرثيكِ أو كوني زوجتي لأعرفَ الخيانة مرة واحدة"...

كيف تعيش تجربتي المسافة والوصول؟

أبالموت احتجاجاً؟ "إني قابل للموت كالصاعقة"،

أم بالأمل والانتظار؟ "زنزانتي وجدتُ على سطحها وجه حريتي"،

أم بالاستقالة؟ "آن لي أن أرحل اليوم وأن أهرب من هذا الزحام، وأغنيّ في الجليل للعصافير التي تسكن عش المستحيل... ولهذا أستقيل أستقيل؟"

بقدر ما نحتاج إلى الشعر وإلى حب الشعر، نحتاج أيضاً إلى بعض الحذر من الشعر. فهذا الغامض الجميل، هذا السيّد المطلق للكلمات في إعادة إنتاج جديد لدلالاتها، قد يغوينا بالقدرة على حل مشاكل الوجود نفسها، ومنها سؤال الموت الذي يحوّله إلى لعبة متعدّدة الوجوه، وفي مقدمتها الوجه الرمزي.

لكن الموت هو الموت. والموت حقيقي أكثر من الشعر الذي أعد نفسه، منذ بدايته، لمصارعة الموت. لقد جرّبت آلام الموت وجرّبت الموت أيضاً، فوجدته سهلاً. ووجدت أن ما يوجعنا في الموت ليس هو الموت بل آلام الموت. لقد تألمت، ساعات، قبل أن أنام هادئاً على قطن أبيض، ولكن حين عاد إليّ الوجع أنبأني طبيب القلب بأن ذلك الوجع كان وجع العودة إلى الحياة بعدما توقف قلبي عن العمل لمدة دقيقتين.

إن سؤالك مركّب بطريقة لا تؤهلني لأن أفهم ماذا تريدين مني بعد الحديث عن الموت. تجربة المسافة وتجربة الوصول؟ صحيح أن المسافة تفتح أفق المشهد على رؤية أفضل حين نرى أنفسنا

وأشياءنا وواقعنا المحدد رؤية كلية. ولكن هذه المسافة لن تكون إلا التيه إذا لم تهدف إلى الوصول. أي وصول؟ إلى الوراء أم إلى الأمام؟ هذا شيء نسبي. فكم من وراء كان أماماً في عالم دائري. لكن الوصول هو الهدف سواء كان الوصول إلى القصيدة، أو الوطن، أو السلطة، أو المرأة.

فيما يعنيني أعيش تجربة المسافة من أجل الوصول بواسطة الحركة، على مختلف مستوياتها، الحركة في العمل، وفي اللغة، وفي النشاط الفردي والجماعي. وعلى هذه المسافة، نترك آثارنا، انكساراتنا، وقود آمالنا، وصمودنا، وشهادتنا على ذاتنا وعلى عصرنا، وعلى إنسانيتنا. وأنا، ربما أترك قصائدي على الطريق الذي لا يعني عدم وصوله، دائماً، عدم صوابه. ومع ذلك، فإنني أعتقد، كما قلت ذات مرة، أن البيت أجمل من الطريق إلى البيت.

٥ – "لا هوية إلا الخيام – كتبتَ – إذا احترقت ضاع منك الوطن".

والخيمة في الشعر، كالغجرية بين النساء،
لا أرض لها ولا وطن.
في غيابك الآني عن وطنكَ،
فوق أي أرض اخترتَ أن تعيش؟

ليست خيمتي مستعارة من بناء الشعر العربي القديم، أي ليست خيمتي خيمة شعرية. فلا هي الغجرية الجميلة بين النساء، ولا هي خيمة الفاتحين، ولا خيمة الأمير الذاهب إلى الصيد في الصحراء.

خيمتي هي أحد أسماء بؤس شعبي. هي أحد عناوين المصير المأساوي لجزء كبير من شعبي لا يستطيع العودة إلى وطنه من جهة، ولا يستطيع الاندماج في منفاه أو بين بني عشيرته من جهة ثانية.

وحين قلت: "لا هويّة إلّا الخيام... إذا احترقت ضاع منك الوطن" كنت أعبّر عن سخرية احتجاجية من خطاب قومي حدّد هوية الفلسطيني بضرورة صيانة بؤسه، بينما هدف الحركة الوطنية الفلسطينية هو صيانة إنسانية الفلسطيني وكرامته، وتطوير التعبير عن حقه في العودة وقدرته على إنجاز هذا الحق، ولذلك فأن التخلص من ظاهرة المخيّم الراهنة هو أحد أهداف العمل الفلسطيني.

على أي أرض اخترت أن أعيش؟ إن المصادفات هي التي تنقلني من أرض إلى أرض في هذه الفترة: من القاهرة، إلى بيروت، إلى

تونس، إلى أوروبا. ولكن الأرض التي إخترت أن أعيش فوقها، هي الأرض التي أورثني إياها أجدادي، كما أورثوني لغتي، وهي الأرض التي يكرس أبناؤهم وأحفادهم وأحفاد أحفادهم حياتهم من أجل استردادها، هي أرض فلسطين... أرض أبي وأمي، وأرض قصائدي...

أما إذا كان سؤالك يطالبني بالجلوس على كرسي الاعتراف، فإنني أعترف بأنني نادم على الخروج من حيفا، على الرغم من أن قرار خروجي لم يكن حراً. نعم، كان ينبغي عليّ أن أبقى في السجن هناك حتى لو كتبت شعراً ذا قيمة أقل!

٦ – عشتَ في بيروت فترة عشر سنوات. لكننا لا نعرف الكثير عن حياتكَ هناك باستثناء ما ورد في بعض القصائد، كقصيدتي "بيروت" و"مديح الظل العالي"، حيث كتبتَ مودّعاً:

"أنا أسمّيكِ الوداع ... ولا أودّعُ إلاّ نفسي".

بعد سنوات على رحيلكَ عن المدينة تعود إليها اليوم وبشكل ملفت، في أغنيات كثيرة تتبنى قصائدك...

بأي قلب تتذكر بيروت؟

وبأي قلب تتذكركَ بيروت؟

عشت في بيروت عشر سنين كانت كافية لأن أعبّر عن حبي الإنساني أكثر لبيروت، لولا صفتي الوطنية التي قد تخدش من يعتقدون أن التعبير عن حب بيروت يعكس نيّة في التوطين.

مع ذلك، كتبت كثيراً عن هذه المدينة التي توقع زائرها في حالة الإدمان العاطفي عليها. ولأن بيروت أكثر من مدينة، في كل شارع مدينة، فإن كل واحد منا يبحث عن نفسه ويجدها في مرآة بيروت، دون أن يعي أن بيروت ليست هنا. وإنه هو ليس في بيروت بقدر ما هو مقيم في صورتها التي شارك في رسمها.

هل كانت بيروت جزيرة للكلام المختلف؟ هل كانت لوحة معلقة على كتيب من رمل؟ لقد دفعت ثمن هذا التميّز وهذا الوصف، لا لشيء إلاّ لكي تدخل في حظيرة المساواة، ولكي ترتاح تل أبيب من محاكمة المقارنة التي ليست في مصلحتها.

كأنه لم يكن من الطبيعي أن تحتفظ بيروت بمكانتها المعنوية. كأنه كان من الطبيعي أن تنهار ليختفي الخاص فينا عن مسرح العام.

لكن بيروت لم تكتب بعد. لقد عشت فيها منذ بدايات الاحتقان

الذي أدى إلى الحرب الأهلية، لذلك فأن تجربتي فيها هي تجربة الشاهد على انهيارات، وعلى رحيل لا مفرّ منه. لقد رأيت رحيلي الجماعي قبل الرحيل، وكتبت نقدي الذاتي، وكتبت حبي أيضاً.

وأعترف: لم أنخرط كثيراً في الوعود التي وعدت بها الأطراف نفسها على مصيرها في بيروت وعلى مصير بيروت في مشاريعها. لم أرَ، وذلك ما عرّضني للنقد من مختلف الأطراف، غير مشهد السباق إلى الهاوية. ولكن، كان عليّ ألّا أنجو من الهاوية. كان عليّ أن أهبط إلى الهاوية. ولم تكن السياسة، وحدها، هي المحرّض. كانت الثقافة سياسية أكثر من السياسة.

لم يكن في حياتي الخاصة ما يقتضي التوقف عنده. لقد توطدت علاقاتي الشخصية مع الشعراء والأدباء اللبنانيين والعرب المقيمين في بيروت. كنت أزور الكلي الأناقة أنسي الحاج، أسبوعياً في النهار. وكنت أدير مجلة "شؤون فلسطينية" ومركز الأبحاث. وبإستثناء بعض النزوات الشخصية والشعرية، لم يكن في حياتي الشخصية ما يستحق الرواية، فقد كنت أحبُ بيروت، وأحذر من لياليها ومن تقلّب مزاجها الأدبي والفني والسياسي. وكنت قبل هذا وذاك بعيداً عن حربها.

٧ – في "سرحان يشرب القهوة" قرأنا:

"رائحة البن جغرافيا، رائحة البن يد... ورائحة البن ناي تزغرد فيه مياه المزاريب"... وفي "ذاكرة للنسيان" كتبت نصاً طويلاً، من بيروت الثمانينات المحاصرة بالدبابات، متمنياً هدنة لخمس دقائق من أجل القهوة... والآن في بيتك، بعدما طلبتُ منكَ – احتراماً – أن أعدّ قهوتنا بنفسي، لغياب العنصر النسائي فيه، أجبتني ممانعاً ومعتداً بمهارتك الفنية في إعدادها:

"قهوة البيت أنا من يحضّرها دائماً... ويقدّمها".

لماذا كل هذا الحب والدلال للقهوة؟ أللونها، لرائحتها أم لأنها الضيف الخفيف الصامت، المرادف لوحدتكَ؟

لن أخّص، هنا، نصّي الطويل عن القهوة. إذ يبدو لي أنه معروف بما فيه الكفاية. ولا أتواضع لأتحاشى القول إنه نص جديد في الكتابة العربية.

القهوة ليست لوناً أو رائحة فقط، وليست مرادفاً للوحدة، ففي وسعنا أن نحدّد موعداً لنحتسي القهوة. وفي وسعنا أيضاً أن نبطّن الكثير من الرغبات في دعوة رجل امرأةً أو في دعوة امرأة رجلاً لتناول القهوة. ففي هذه الدعوة تواطؤ، إذا شئنا، على التعبير عن شيء آخر. في القهوة، إذاً، كناية. وهذا ما لم أقله، ويا ليتني قلته، في نصيّ المشار إليه.

والقهوة عادة، فردية وجماعية. ومع فنجان القهوة الأول، وهو نداء عضوي، تتفتّح نداءات أخرى، منها نداء الإدمان على التدخين ونداء البحث عن الجريدة، ونداء التأكد من هوية المناخ، فكلما كان شكل الصباح أصفى كلّما احتسينا القهوة بإستمتاع وعلى مهل. أما إذا كانت السماء رمادية، فأننا نجرع القهوة، وقد لا نرى منها إلا لونها. والقهوة الأولى، كما قلت، يعكرها

الصوت. هي، هنا، مرادفة للوحدة. وقهوتي الأولى لا تقبل أي صوت، لا صوت الراديو، ولا صوت الهاتف، ولا صوت حبيبتي، إذا وجدت في البيت.

والقهوة الأولى هي أول دقيقة في الوقت. قبلها يكون الزمن نائماً. قبلها يكون كل شيء في حالة موت.

نعم، القهوة لون، ورائحة، ومذاق، ووحدة، وجماعة، وتأمل، وتفتّح، ونافذة مفتوحة للشمس وللهواء، ويد بعيدة، وناي ينادي البعيد.

ولكنها، قبل ذلك، هي أول خطوة أخطوها نحو حياتي...

[هل تريدين فنجان قهوة؟ فالساعة الآن هي السادسة بعد الظهر، وليس هنالك من سبب يدعوكِ لأن تخافي على صفاء القهوة من الكلام. فالقهوة الآن تتحمّل الصوت]

٨ – أستاذ محمود...

لماذا الشعر؟ وماذا يبقى منك خارجه؟

لماذا الشعر؟ لأني أستطيع أن أقول فيه وأن أفعل فيه ما لا أستطيع قوله أو فعله خارج الشعر.

فلو فعلنا وقلنا خارج الشعر ما نفعل ونقول داخله، لبدا الشعراء عصابة من المجرمين والمجانين.

تصوّري لو أنني مشيت عارياً في الشارع، أو تصوّريني أقول لجرسون المقهى: "أعطني فنجاناً من القهوة تزغرد فيه مياه المزاريب"!

لا أستطيع في القصيدة إلا أن أكون حرّاً. ولا أستطيع أن أكون حرّاً إلا إذا كنت عارياً تماماً من الأقنعة، ومن الأهداف، ومن التقاليد، ومن الحرية ذاتها.

أما ما يبقى مني خارج الشعر فهو: القناع، والهدف، والموروث، وشرط الحرية.

وقد يكون ذلك أفضل.

ولكن إسمعي هذه النصيحة من إنسان يدخل إلى الشعر ويخرج منه: إن بعض الأسئلة مهووس بالمفارقة، كسؤالك

هذا – وهو سؤال جميل لأنه يريد أن يؤسس التناقض، أو التعارض، بين الداخل الشاعر وخارجه.

ولكن، علينا أن نتذكر دائماً أو أحياناً كما تشائين، أنه لا وجود للداخل من دون الخارج. ليس لي ما أجده داخل الشعر إذا لم أكن ممتلئاً بالخارج: بالواقع، بالناس، بالتاريخ، بالطبيعة وغيرها. وللداخل أن يركب كيمياء داخله الخاص والسري، بطريقته التي لا نفهم آلية عملها، مع العناصر القادمة من الخارج والمكوّنة أيضاً لعلاقة الداخل بها.

أما كيف يتجلّى الداخل داخلاً مستقلاً عن عناصر تكوينه الخارجية، فتلك إحدى أسرار خصوصية كل واحد منا. من الطبيعي أن يخرج الداخل بعالمه الخاص، قصيدته، إلى الخارج مختلفاً عنه. ولكنه لو لم يكن منه لما إختلف عنه. وليس في وسع الشاعر أن يكون شاعراً دائماً.

أن ما يتبقى منا خارج الشعر هو قابليتنا المتوترة لتحويل الخارج إلى مادة يهضمها الداخل، أي إلى تحويل الواقع اللاشعري إلى حالة شعرية...

٩ - منذ "أوراق الزيتون" إلى "أرى ما أريد"، آخر دواوينك اليوم،

من كتب ويكتب قصيدتكَ؟

أنتَ وحدكَ أم أنها جماعة من لحمكَ ودمكَ تنطق باسمها تشاركك كتابتها؟

ألا تخاف على قصيدتكَ من الأصوات الواجب تمثيلها دوماً؟

لم نقرأ لك مرة قصيدة حب واحدة كانت غاية لذاتها وتؤمن بمجانية ما يحصل حولها ولا تعبّر إلا عن ذاتها بعيداً عن الهموم الجماعية...

ألا يقلقك ذلك؟

هنا أيضاً، نواصل جدلية السؤال السابق، لأضيف: إن الواحد هو إبن الجماعة. ولذا، لم أقرأ نصاً شعرياً لآدم الذي كانت حواء اكثر شاعرية منه لأنها كانت نتاج جماعته. الفراغ الإنساني لا يكتب غير الفراغ. ولو لم يخلق الله البشر لما كتب لهم.

ليس هنالك من شاعر مقطوع عن تاريخه الإنساني والثقافي وعن جماعته، مهما كبرت أو صغرت، وعن واقعه. لأن الكتابة والقراءة هما عملية اجتماعية محددة بشروط تاريخية. فلماذا نلقي على أنفسنا، وفي لحظة تاريخية، عبء أسئلة التاريخ البشري والروحي بكاملها؟ لماذا نبدأ التاريخ من لحظة ما قبل التكوّن؟ ألكي نقول أكثر من أن الشاعر هو سيدّ الكلمات الحر؟

لست وحيداً إلى هذا الحد. وليس كبدي الشعري إصطناعياً إلى الحد الذي أقول معه إنني أستعير التضامن مع جماعتي. لأن سيرتي الخاصة هي سيرتها، ولأن لغتي هي لغتها، ولأن تاريخي الوطني والثقافي هو تاريخها في اندماجه مع التاريخ الإنساني العام.

وليس من واجبي أن أمثّلها، فأنا لا أحب أن أمثّل أحداً، ولا

أستطيع أن أمثّل غير الزحام الذي يزدحم في نفسي، في فوضاه وفي تناقضاته. حتى نفسي لا أدعي تمثيلها بقدر ما هي متحركة. ألا أصطدم مع نفسي ومع جماعتي، دائماً، في ما يتعلّق بطريقة فهمي لطبيعة الشعر، وبطريقة فهمي لعلاقة الـ"أنا" بالآخر، ولعلاقة القصيدة الجديدة بالذائقة الجماعية العامة؟ نعم. إن ذلك يحدث مراراً دون أن أتوقف عن تطوير الشاعر فيّ حتى لو دُفع به إلى العزلة عن لحظة الذوق العام الراهنة، والقابلة دائماً للتطوّر. من "سجّل أنا عربي" إلى "ألهدهد" ماذا حدث لي وماذا حدث لجماعتي؟ لقد تغيّرنا معاً، ولو بوتائر مختلفة.

من الضروري أن تعرفي، دون أن تعترفي، أن الشاعر وهو يكتب لا يكتب لأحد أو إلى أحد. أن لاوعيه يملي عليه، بحرية مطلقة، ما يختزنه من وعي. ليس هناك من صوت للجماعة إلاّ إذا وجدت الجماعة صوتها الجماعي في صوت الفرد. إن ذلك التلاقي يتمّ بعد عملية الكتابة. فماذا يفعل الشاعر حين يجد الناس في صوته الفردي مرايا صوتهم الجماعي؟ هل يحتج عليهم أم يحتفل؟

إني أحتفل حين أرى أن مجانيتي تحوّلت إلى ضرورة.

١٠ - ما دور المصادفة التاريخية والسياسية، التي تكون عاملاً في إبراز شاعر دون سواه؟

كيف تحارب تلك الصدفة، التي ما إن أوصلتكَ حتى حمّلتك عبء ما أوصلتكَ إليه؟

أنا أرى أن أجمل قصيدة لم تكتبها بعد!

بدأت أشعر بالتعب. أعني من الأسئلة لا من المصادفة.

لقد اختار الآباء أبناءهم. ولكن لم يختر احد من الأبناء أباه أو أمه.

ماذا كنت سأفعل لو ولدتُ من أب سويدي ومن أم يونانية، وكان مسقط رأسي لندن؟ كنت سأقبل الحياة كما وهبتني إياها الحياة. وكنتُ سأغوص، باللغة الإنجليزية، في البحث عن جذوري الثقافية الإغريقية، وعن حقيقة أبي السويدية. أليس كذلك؟

لماذا تكون المسألة طبيعية هناك، مع أنها أكثر أشكالية؟ وتكون إشكالية هنا، مع أنها طبيعية إلى أقسى درجات البساطة؟

لقد وُلدت من أب وأم عربيين على أرض فلسطين. فلماذا أحارب هذه المصادفة؟ لماذا أحتج، لماذا أشكو من هذا الإرث؟ لعل في التاريخ من القسوة ما يجعل وارث الأرض وارثاً للصليب أيضاً.

لا أستطيع التدخل في ما لا أستطيع التدخل فيه، وهو المصادفة التاريخية.

أنا من هناك – هذا هو تاريخي

أنا من هناك – هذه هي لغتي

أنا من هناك – هذا هو مصيري

أنا من هناك – هذا هو أنا

أما أجمل قصيدة، فإن أحداً لم يكتبها بعد، لا من وُلد هنا، ولا من وُلد هناك. لا من وُلد أمس، ولا من يوُلد الآن، ولا من يوُلد غداً...

إن أجمل قصيدة لن تكتب أبداً... أبداً...

١١ - تأكيداً على ذلك، نشعر كأنك كتبتَ قصيدة واحدة، لتقول شيئاً واحداً، لامرأة واحدة، ولتدلّ على عدوّ واحد...

لو تحرّرت فلسطين، وانتهت فصول المأساة الفلسطينية، أي شكل سترتديه قصيدتك الجديدة؟

الموضوع هو، شعرياً، ذريعة لكتابة الشعر...

أما إذا كنت تشعرين بما تقولين، وكنت متأكدة من ذلك، فهذا يعني في أسوأ الأحوال أن الشاعر، مهما كتب، لا يكتب غير شيء واحد في قصيدة واحدة حتى لو إستغرقه الوصول إلى هذا القول في هذه القصيدة آلاف القصائد التمهيدية...

وهو يعني، في أحسن الأحوال، أنني لستُ شاعراً جيداً. وهذا الإحتمال، بالطبع، خير من الاحتمال الأول.

وليكن...

إذا كان السؤال معطوفاً على ما سبق من كلام عن المصادفة التاريخية، فليس في وسعنا أن نعالج هذه المسألة المنسوبة إلى قراءة الرمل: ماذا لو... ماذا لو...

ماذا؟ لا أحد يعرف. ولكني أعرف أن البعض، وخاصة من الخصوم السياسيين، ينتظرون موت قصيدتي مع موت غربتي ما دمت هنا، وينتظرون موت قصيدتي مع انهيار جدران سجني لو كنت بقيت هناك.

صدّقي أنني لا أهتم بهذا التنجيم، ما دمت لا أضع الشعر منافياً للحرية. ولكن، هل سيتغيّر شكل قصيدتي؟ لا أعرف، على الرغم من أن هذا الشكل الذي أبلوره الآن، بعلاقته بسؤال الشعر وبالبحث عن القصيدة الشاملة، لا يبدو لي أنّه سيتغيّر، إلاّ بقدر ما سيتطوّر.

إن انتهاء المأساة الفلسطينية لا يوقف سؤال الإنسان الفلسطيني عن هويته الثقافية وعن دوره الإنساني، وعن وجوده، ولا ينهي السؤال الإنساني في الإنسان. إن الإنسان فينا لن يموت عندما نتحرر، ولكنه سيجد مكانه الطبيعي لكي يتطور. وهناك سنجد المناخ الملائم لقراءة الشعر وكتابته ومحاكمته بأدوات أكثر جمالية، وأقل وطنية بالمعنى الرائج للكلمة...

١٢ - "كل حرب - تقول - تعلّمنا أن نحب الطبيعة أكثر. بعد الحصار نعتني بالزنابق أكثر. نقطف قطن الحنان من اللوز في شهر آذار، نزرع الغاردينيا في الرخام ونسقي نباتات جيراننا...".

كأن حياتك الآنية، الرقيقة كبياض الزنابق مرحلة موقتة، تؤكد دوماً أنها ستنتهي لا محالة إلى الرجوع. فيها بنيت قصائد ومددتها جسراً للعائدين، وفرشت لهم الدنيا انتظاراً.

ألا تخاف من خيبة الأمل؟ ألا تخاف على قصيدتك إن هي بقيت أجيالاً أخرى معلّقة فوق آمال العائدين وخيباتهم؟

لم يعد هناك ما يكفي من الوهم لأخاف خيبة الأمل، فالعقد الأخير من هذا القرن العاصف علّمنا أن نفتح باب المخيلة لكافة الإحتمالات. وعلّمنا أنه ليس للهاوية من قرار. وعلّمنا ألاّ نفرح أو نغضب بما يقدمه لنا الواقع التاريخي من مفاجآت.

كأن علينا أن نركّب عقلاً آخر لكي نتحمّل صدمة المفاجآت، ولكي نتكيّف مع متطلبات فهم العالم الفوضوي الجديد.

كل شيء، إذاً، مؤقت ما دام التاريخ في حالة تعويم عام، وما دام عشوائياً إلى هذا الحد. ومع ذلك، ما زال في وسعي أن أحلم، ما زال في وسعي أن أواجه صدمة الواقع بصدمة شعرية هي الوحيدة الكفيلة بتبرير حياتي. ما زال في وسعي أن أشهد على أكثر من تاريخ عشته وأعيشه في لحظة واحدة.

ماذا يبقى من كل ذلك؟

لا أعرف. وربما لا أريد أن أعرف،

فليس في قلبي مكان لطعنة جديدة.

لا أريد أن أرى بعينيّ سقوط ما كتبته على الورق وعلى الجدران

وعلى الهواء. لا أريد أن أرى أكثر مما رأيت من خيبات الأمل.
ولعلّ ذلك هو ما تبقى لي من أَمل: أن أحصّن نفسي ضد الخيبة.
أما العائدون، فإنهم عائدون، بقصيدتي أو بغير قصيدتي.

أنا الموقع أدناه

محمود درويش



الصومعة الدرويشية الفاخرة: 7، ساحة الولايات المتحدة، باريس 16.





مكتبة درويش تعج [illegible] والأدب... داخل منزل



أمام الواجهة الزجاجية المطلّة على برج إيفل.



محمود درويش يدوّن الحوار بخط يده.



العناوين الشخصية والحميمة... جذبت زواره والأصدقاء.



يشرب القهوة: "إنتِ أسوأ فتاة حضّرت لي قهوتي في بيتي".



"قولي لي ماذا تعرفين عن محمود درويش؟"



"قليلاً... وأدخل في الخمسين".



في 15 نيسان/أبريل 2002، درويش لإيفانا بعيد توقيعه "حالة حصار" في فندق كومودور، الحمرا، بيروت: "حضّري مقدّمة الكتاب وسأراجعها معك فور جهوزها".

الحوار كاملاً بخطّ محمود درويش

عليّ أن أبتعد عنه أكثر، في الزمان وفي المكان، أو أن أدنو منه أكثر لكي أراه بشكل أوضح، ولكي أروي سيرته. فها هو ما زال معي، أو فيّ، يمدّني بالصورة الأولى لهذه الأرض الأولى كما كانت، لا كما أصبحت عليه. وما زال يحمل الأرض لعبة، وما زال يرضع من ثديها. وما زال يحنّ للعودة إلى بيت الأرض الأول، أو إلى أرض الأرض، إذا جاز التعبير.

والريح.. ما زالت هي الريح، أنصب عليها خيامي التي لم تتوقف عن الاقتلاع. ما زالت تهبّ من كل ناحية، وخاصة من ناحية القلب، وكأنني لم أسكن شيئاً سوى الريح التي هي تحتي - كما كان المتنبي يقول - أو فوقي كما أحاول أن أقول. فهل في اللغة ما يكفي من الأرض كي نعرف سكناها؟ ربما كان في هذا التعويض ما يبرّر استمرار الأغنية، ولكن للهوية شرطاً أكثر صلابة، إنه شرط الأرض. فهل تبقى الأرض إذا ذهبت الأغنية، أو على العكس؟

لا أرغب ، أبداً ، في النظر الى مادية الأرض
والى معانيها من هذا المنظور . كذلك لا أرغب
في النظر الى سماء الأغنية من منظور هذا الشبه .
مالاً ، لتحول الصراع الانساني كله الى سباق
على إنجاز الهزيمة ، على خسارة الواقع من أجل
كسب التعبير عن الواقع المفقود أو الأرض المفقودة
لا ، لست شاعراً عبثياً الى هذا الحد . فأنا
أريد الأرض وأريد الأغنية أسوة بجميع سكان
الكرة الأرضية .
أما الطفل الذي يحملني وأحمله ، الطفل الذي
كبر كثيراً وصار « أنا » ، فانني أريد أن أرجعه
الى أمه ، الى بيته على أرضه ، حتى لو لم يعد
لا صغيراً .. ولا جميلاً .. وليلعب هناك كما يشاء
على جذوع الحكايات والسنديان ، وليلعب في اللغة
اذا أراد هناك ، أو في أي مكان آخر . فعندئذ ،
عندما يعود يصير قادراً على الرحيل الحر من
الأرض الموعودة الى الأغنية الموعودة .

أمي هي أمي. ولو استطعت أن أملكَ خصرها وضفائرها من لعنة الرموز لفعلت. نعم، تركت وجهي على منديلها، لأنني خارجها أفقدُ ملامحي.

وعندما لا أطلب من كل هذا المأساوي، الذي هو ما يدور في بلادي وعليها، غير منديل أمي، فلأنني أسعى لاسترداد ملامحي الأولى، لاسترداد انساني في صورتي كما هي، لا كما ترسمها الجريمة الكبرى التي ارتكبت في بلادي من ناحية، ولا كما ترسمها البطولة من ناحية أخرى.

في أمي، مثلما نشأت، ذاكرة الأرض الفلسطينية ومشهد تاريخها المتنوع، والشاهد على مرآة من تحوّل الزمني وبقاء الروحي. والأرض، التي هي أمي، هي الأرض ذات الفصول الأربعة، ذات البحر الأبيض وذات البحر الميت، هي الخارطة الحية لكل الشجر والعشب والزهر والدم. هي الباقية، وكأنما بلا اكتراث بالعابرين من الغزاة حتى لو صار بعضهم آباء أو

ادعياء الأبوة . ولكنها هي بأمومتها التي لا يشك بها مؤرخ أو طبيب أو مهندس زراعي ، هي أمي .

ليست « سيدة الحزن » في حضرتها ، فهي في تحررها من رموزها ، سيدة قوية ، وقاسية أحياناً ، وليس في وسع الابن أن يكون سيد أي شيء في حضرة أم قاسية . كنت أظن ، وأنا صغير ، أنها لا تحبني . لا أتذكر قبلاتها وهداياها إلا في سجني الأول . وبعدما تكررت سجوني تكررت زياراتها وقبلاتها وهداياها ، لأدرك أن وراء قسوتها المصطنعة أماً عاطفية ، هشة ، وجميلة . ولكنها أيضاً لاذعة في السخرية .

وعندما قابلتها ، قبل أشهر ، في القاهرة عثرت فيها على رواية بارعة .. لا تتوقف عن نقد الساسة والسياسيين . وحين عاتبتها : لماذا كنت تضربينني كثيراً وتحملينني المسؤولية عن كل ما يجري في الحارة ؟ ضحكت لتوحي لي بأنني كنت جامحاً وكثير النكد . وعندما سألتها إن كنت سأعود إليها قريباً في بيتها ، رفعت عينيها إلى الله وأضافت : إن غرفتك ما زالت كما تركتها ، بكتبها ولوحاتها ، لكننا أضفنا إليها صور زوجاتك وأنزلناها ، فمتى نثبت الصورة الأخيرة ؟ وطالبتني بأن أنجب « طفلاً »

وأرسله اليها .

وقالت : صحيح ، ان البيت لم يتغيَّر .
ولكن كل شيء خارجه قد تغيَّر .

ريتا، ليست اسم امرأة. هي اسم شعري لصراع الحب في واقع الحرب. هي اسم لعناق جسدين في غرفة محاصرة بالبنادق. هي الشهوة المتحدّرة من الخوف والعزلة دفاعاً عن بقاء كل من الجسدين في ظرف يتحاربان فيه خارج العناق.

منذ خمسة وعشرين عاماً يوقظ الشتاء موقع زلزال الدمع، حيث لسعتني الأفعى. لا، لم يكن حبّاً، بقدر ما كان حادثة ومفارقة، واختباراً لإنسانية الجسد في تحرّره من الوعي.

كأنها، كأن هذا الاسم كان يغنّي، لبعد الصهيل، زلزال الصمت البعيد البعيد الذي يأخذ كل واحد منا إلى منفاه الذي لا يتجاور مع منفى الآخر. كان يغنّي بلغة لا أفهم منها غير اغترابنا وتلاشي الظل في الظلام. ولكننا ندّعي ملكية الزنبقة ذاتها.

لم يكن في وسع هذه الرغبة أن تنطفئ تدريجياً. كان عليها أن تحرقه وأن تحرقنا. وكان على كناسي الشوارع أن يكنسوا الحارسة ومفاتيحها في الصباح.

لا لأن حكاية شهرزاد قد انتهت، بل لأنها قد بدأت. ولأنه ليس في وسع الجسد أن يسرد الجسد، كثيراً، على مرأى من بنادق الحراس.

ولكن، من هي ريتا؟ سأبحث عنها مرة أخرى في جسدي، وربما تستطيع قصيدةٌ ما أن تجدها.. ربما!

بقدر ما نحتاج الى الشعر والى حب الشعر ، نحتاج أيضاً الى بعض الحذر من الشعر . فهذا الفائض الجميل ، هذا السيّد المطلق للكلمات في إعادة إنتاج جديد لدلالاتها ، قد يغوينا بالقدرة على حل مشاكل الوجود نفسها ، ومنها سؤال الموت الذي يحوّله إلى لعبة متعدّدة الوجوه ، وفي مقدمتها الوجه الرمزي .

لكن الموت هو الموت ، والموت حقيقي أكثر من الشعر الذي أعدّ نفسه ، منذ بدايته ، لمصارعة الموت . لقد جربت آلام الموت وجربت الموت أيضاً ، فوجدته سهلاً . ووجدت أن ما يوجعنا في الموت ليس هو الموت بل آلام الموت . لقد تألمت ، ساعات ، قبل أن أنام صارخاً على قطن أبيض ، ولكن حين عاد إليّ الوعي أنبأني طبيب القلب بأن زمن الوعي كان زمن العودة الى الحياة بعدما توقف قلبي عن العمل لمدة دقيقتين .

ان سؤالك مركّب بطريقة لا تؤهلني الآن لأن أفهم ماذا تريدين مني بعد الحديث عن الموت . تجربة المسافة وتجربة الوصول ؟ صحيح أن المسافة تفتح لأعمق

المشهد على رؤية أفضل حين نرى أنفسنا وأشياءنا ومواقعنا المحددة رؤية كلية . ولكن هذه المسافة لن تكون إلا التيه إذا لم تهدف إلى الوصول . أي وصول ؟ الى الوراء أم الى الأمام ؟ هذا شيء نسبي ، فكم من وراء كان أماماً في عالم دائري . لكن الوصول هو الهدف سواء كان الوصول الى القصيدة ، أو الوطن ، أو السلطة ، أو المرأة .

فيما يعنيني أعيش تجربة المسافة من أجل الوصول بواسطة الحركة - على مختلف مستوياتها ، الحركة في العمل ، وفي اللغة ، وفي النشاط الفردي والجماعي . وعلى هذه المسافة نترك آثارنا ، انكساراتنا ، ونترك آمالنا ، وصورنا ، وشهاداتنا على ذاتنا وعلى عصرنا ، وعلى إنسانيتنا . وأنا ، ربما أترك قصائدي على الطريق الذي لا يعني عدم وصوله ، دائماً ، عدم صوابه . ومع ذلك ، فإنني أعتقد ، كما قلت ذات مرة ، ان البيت أجمل من الطريق الى البيت .

ليست قيمتي مستعارة من بناء الشعر العربي القديم، أي ليست قيمتي قيمة شعرية، فلا هي الغزلية الجميلة بين النساء، ولا هي قيمة الفاتحين، ولا قيمة الأمير الذاهب إلى الصيد في الصحراء.

قيمتي هي أحد أسماء بؤس شعبي، هي أحد عناوين المصير المأساوي لجزء كبير من شعبي لا يستطيع العودة إلى وطنه من جهة، ولا يستطيع الاندماج في منفاه أو بين بني عشيرته من جهة ثانية.

وحين قلت: «لا لهوية الخيام». إذا احترقت ضاع سنة الدولة، كنت أعبّر عن سخرية احتجاجية من خطاب قومي حدّد هوية الفلسطيني بضرورة صيانة بؤسه، بينما حرص الحركة الوطنية الفلسطينية هو صيانة إنسانية الفلسطيني وكرامته، وتطوير التعبير عن همته في العودة وقدرته على إنجاز هذا الحلم، ولذلك فإن التخلص من ظاهرة المخيم الراهنة هو أحد أهداف العمل الفلسطيني.

على أي أرض اخترت أن أعيش؟ إن

المصادفات هي التي تنقلني من أرض إلى أرض في هذه الفترة: من القاهرة، إلى بيروت، إلى تونس، إلى أوروبا. ولكن الأرض التي اخترت أن أعيش فوقها، هي الأرض التي أورثني إياها أجدادي، كما أورثوني لغتي، وهي الأرض التي يكرس أبناؤهم وأحفادهم وأحفاد أحفادهم حياتهم من أجل استردادها، هي أرض فلسطين أرض أبي وأمي، وأرض قصائدي.

أما إذا كان سؤالك يطالبني بالجلوس على كرسي الاعتراف، فإنني أعترف بأنني نادم على الخروج من حيفا، على الرغم من أن قرار خروجي لم يكن حراً. نعم، كان ينبغي عليّ أن أبقى في السجن هناك حتى لو كنت شعراً ذا قيمة أقل!

عشت في بيروت عشر سنين كانت كافية لأن
أعبّر عن حبّي الإنساني أكثر لبيروت . لولا صفتي
الوطنية التي قد تخدش مَن يعتقدون أن التعبير
عن حب بيروت يلتبس نيّة في التوطين !!

مع ذلك ، كتبتُ كثيراً عن هذه المدينة التي توقع
زائرها في حالة الإدمان العاطفي عليها . ولأن بيروت
أكثر من مدينة ، في كل شارع مدينة ، فإن كل واحد
منا يبحث عن نفسه ويجدها في مرآة بيروت ، دون
أن يعي أن بيروت ليست هنا ، وأنه هو ليس
في بيروت بقدر ما هو مقيم في صورتها التي شارك
في رسمها .

هل كانت بيروت جزيرة للكلام المختلف ؟ هل كانت
لوحة معلقة لكثيب من رمل ؟ . لقد دفعت ثمن
هذا التمييز وهذا الوصف ، لا لشيء إلا لكي تدخل
في حظيرة المساواة ، ولكي ترتاح كل أجيب من محاولة
المقارنة التي ليست في مصلحتها .
وكأنه لم يكن من الطبيعي أن تحتفظ بيروت

بمكانتها المعنوية . كأنه كان من الطبيعي أن تنهار ،
ليختفي الخاص فينا عن مسرح العام .

لكن بيروت لم تكتب بعد . لقد عشت فيها منذ
بدايات الاحتقان الذي أدى إلى الحرب الأهلية ، لذلك
فإن تجربتي فيها هي تجربة الشاهد على انهياراتها ، وعلى
رحيل لا مفرّ منه . لقد رأيت رحيلي الجماعي قبل
الرحيل ، وكتبت نقدي الذاتي ، وكتبت حبي أيضاً .

وأعترف : لم أنخرط كثيراً في الدعوات التي وجهت
بها الأطراف نفسها على مصيرها في بيروت وعلى
مصير بيروت في مشاريعها . لم أر ، وذلك ما عرّضني
للنقد من مختلف الأطراف ، غير مشهد السباق إلى
الهاوية . ولكن ، كان عليّ ألا أنجو من الهاوية . كان
عليّ أن أهبط إلى الهاوية . ولم تكن السياسة ، وحدها ،
هي المحرّض . كانت الثقافة سياسية أكثر من السياسة .

لم يكن في حياتي الخاصة ما يقتضي التوقف عنده . لقد
توطدت علاقاتي الشخصية مع الشعراء والأدباء اللبنانيين
والعرب المقيمين في بيروت . كنت أزور الكلية الأنانية ،
أنسي الحاج ، أسبوعياً في النهار . وكنت أدير مجلة
« شؤون فلسطينية » ومركز الأبحاث .

وباستثناء بعض النزوات الشخصية والشعرية،
لم تكن في حياتي الشخصية ما يستحق الرواية،
فقد كنت أحب بيروت، وآخذ من لياليها
ومن تقلّب مزاجها الأدبي والفني والسياسي. وكنت
قبل هذا وذاك بعيداً عن حربها.

لن أخوض، هنا، في قصّتي الطويلة عن القهوة.
إذ يبدو لي أنه معروف بما فيه الكفاية. ولا
أتواضع لأتحاشى القول إنه نص جديد في الكتابة
العربية.

القهوة ليست لوناً أو رائحة فقط، وليست
مرادفاً للوحدة، ففي وسعنا أن نحدّد موعداً لنحتسي
القهوة. وفي وسعنا أيضاً أن نبطّن الكثير من الرغبات
في دعوة رجل امرأةً أو في دعوة امرأة رجلاً
لتناول القهوة. ففي هذه الدعوة تواطؤ، إذا شئنا،
على التعبير عن شيء آخر. في القهوة، إذاً،
كناية. وهذا ما لم أقله، وياليتني قلته، في نصّي
المشار إليه.

والقهوة عادة فردية وجماعية.
ومع فنجان القهوة الأول، وهو نداء عضوي، تتفتّح
نداءات أخرى، منها نداء الإدمان على التدخين ونداء
البحث عن الجريدة، ونداء التأكد من صحة المناخ،
فكلما كان شكل الصباح أصفى كلّما احتسينا القهوة

باستمتاع وعلى مهل. أما إذا كانت السماء ماطرة،
فإننا نجرع القهوة، وقد لا نرى منها إلا لونها.

والقهوة الأولى، كما قلت، يعكرها الصوت.
هي، هنا، مرادفة للوحدة. وقهوتي الأولى لا تقبل
أي صوت، لا صوت الراديو، ولا صوت الهاتف،
ولا صوت حبيبتي، إذا وجدت في البيت.

والقهوة الأولى هي أول دقيقة في الوقت.
قبلها يكون الزمن نائماً. قبلها يكون كل شيء في حالة
موت.

نعم، القهوة لون، ورائحة، وزمان، ووحدة،
وحمامة، وتأمل، وتفتح، ونافذة مفتوحة للشمس
والهواء، وبيد بعيدة، وناي ينادي البعيد.
ولكنها، قبل ذلك، هي أول خطوة أخطوها نحو
حياتي..

[هل تريدين فنجان قهوة؟ فالساعة الآن
هي السادسة بعد الظهر، وليس هناك من
سبب يدعوك لأن تخافي على صفاء القهوة من
الكلام. فالقهوة الآن تتحمل الصوت]

لماذا الشعر؟ لأني أستطيع أن أقول فيه
وأن أفعل فيه ما لا أستطيع قوله أو فعله خارج
الشعر.

فلو فعلنا وقلنا خارج الشعر ما نفعل ونقول
داخله، لبدا الشعراء عصابة من المجرمين والمجانين.

تصوري لو أنني مشيت عارياً في الشارع، أو
أو تصوريني أقول لجرسون المقهى: «أعطني فنجاناً من
القهوة تزغرد فيه مياه المزاريب»!

لا أستطيع في القصيدة إلا أن أكون حراً. ولا
أستطيع أن أكون حراً إلا إذا كنت عارياً تماماً من
الأقنعة، ومن الأهداف، ومن التقاليد، ومن
الحرية ذاتها.

أما ما يبقى مني خارج الشعر فهو: القناع،
والهدف، والموروث، وشرط الحرية.

وقد يكون ذلك أفضل.

ولكن، إسمعي هذه النصيحة من إنسان يدخل إلى
الشعر ويخرج منه: إن لبعض الأسئلة مهووس

بالمفارقة ، كسؤالك هذا - وهو سؤال جميل
لأنه يريد أن يؤسس التناقض ، أو التعارض ،
بين داخل الشاعر وخارجه .
ولكن ، علينا أن نتذكر دائماً أو أحياناً
كما تشاء ، أنه لا وجود للداخل من دون
الخارج . ليس لي ما أجده داخل الشعر إذا
لم أكن ممتلئاً بالخارج : بالواقع ، بالناس ، بالتاريخ ،
بالطبيعة وغيرها . وللداخل أن يركب كيمياء داخله
الخاص والسري ، بطريقته التي لا نفهم آلية عملها ،
مع العناصر الآتية من الخارج والمكوّنة أيضاً لعلاقة
الداخل بها .

أما كيف يتجلى الداخل داخلاً مستقلاً عن عناصر
تكوينه الخارجية ، فتلك إحدى أسرار خصوصية كل واحد
منا . من الطبيعي أن يخرج الداخل بعالمه الخاص ،
قصيدته ، إلى الخارج مختلفاً عنه . ولكنه لو لم يكن
منه لما اختلف عنه . وليس في وسع الشاعر أن يكون
شاعراً دائماً .

إن ما يتبقى منا خارج الشعر هو قابليتنا
المتوترة لتحويل الخارج إلى مادة يهضمها الداخل ، أي
إلى تحويل الواقع اللاشعري إلى حالة شعرية ..

هنا أيضاً ، نواصل جدلية السؤال السابق ،
لأضيف : إن الواحد هو ابن الجماعة . ولذا ، لم أقرأ
نصاً شعرياً لآدم الذي كانت حواء أكثر شاعرية منه
لأنها كانت نتاج جماعة .

الرائي الإنساني لا يكتب غير الرائي . ولو لم يخلق
الله البشر لما كتب لهم .

ليس هنالك من شاعر مقطوع عن تاريخه الإنساني
والثقافي وعن جماعته ، مهما كبرت أو صغرت ، وعن واقعه .
لأن الكتابة والقراءة هما عملية اجتماعية محددة بشروط
تاريخية . فلماذا نلغي كل أنفسنا ، وفي لحظة تاريخية ، عمق
أسئلة التاريخ البشري والروحي بكامله ؟ لماذا نبدأ التاريخ
من لحظة ما قبل التكوين ؟ ألكي نقول أكثر من أن الشاعر
هو سيد الكلمات الحر ؟

لست وحيداً إلى هذا الحد . وليس لدي البشري اصطناعاً
إلى الحد الذي أقول معه إنني أستطيع التضامن مع جماعتي . لأن
سيرتي الخاصة هي سيرتها ، ولأن لغتي هي لغتها ، ولأن تاريخي
الديني والثقافي هو تاريخها في اندماجه مع التاريخ الإنساني
العام .

وليس من واجبي أن أمثلها ، فأنا لا أحب أن
أمثل أحداً ، ولا أستطيع أن أمثل غير الزحام الذي

يزدحم في نفسي، في فوضاه وفي تناقضاته. حتى نفسي لا أدري تمثيلها بقدر ما هي متحركة. ألا أصطدم مع نفسي ومع جماعتي، دائماً، في ما يتعلق بالحرية فهي لطبيعة الشعر، وبالحرية فهي للعلاقة الـ "أنا" بالآخر، وللعلاقة القصيدة الجديدة بالذائقة الجماعية العامة؟ نعم. إن ذلك يحدث مراراً دون أن أتوقف عن تطوير الشاعر فيّ حتى لو دُفع به إلى العزلة عن لحظة التذوق العام الراهنة، والقابلة دائماً للتغيير. منذ متى أنا غريب إلى هذه الدرجة؟ ماذا حدث لي وماذا حدث لجماعتي؟. لقد تغيرنا معاً، ولو بدرجات مختلفة.

من الضروري أن تعرفي، دون أن تعترفي، أن الشاعر وهو يكتب لا يكتب لأحد أو إلى أحد. إن الأوعية يملي عليه، بحرية مطلقة، ما يختزنه من وعي. ليس هناك من حدث للجماعة إلا إذا وجدت الجماعة حدثها الجمالي في حدث الفرد. إن زمن التلاقي يتم بعد عملية الكتابة. فماذا يفعل الشاعر حين يجد الناس في صوته الفردي مرايا صدقهم الجمالي؟ هل يحتج عليهم. أم يحتفل؟

إني أحتفل حين أرى أن مجانيني تحولت إلى ضرورة.

بدأت أشعر بالتعب. أعني من الأسئلة لا من المصادفة.

لقد اختار الآباء أبناءهم. ولكن لم يختر أحد من الأبناء أباه أو أمه.

ماذا كنتُ سأفعل لو وُلدتُ من أب سويدي ومن أم يونانية، وكان مسقط رأسي لندن؟ كنت [redacted] سأقبل الحياة كما وهبتني إياها الحياة. وكنتُ سأغوص، باللغة الإنجليزية، في البحث عن جذوري الثقافية الإغريقية، وعن حقيقة أبي السويدية. أليس كذلك؟

لماذا تكون المسألة طبيعية هناك، مع أنها أكثر إشكالية؟ وتكون إشكالية هنا، مع أنها طبيعية إلى أقصى درجات البساطة؟

لقد وُلدت من [redacted] أب وأم عربيين على أرض فلسطين. فلماذا أحارب هذه المصادفة؟ لماذا أحتج؟ لماذا أشكو من هذا الإرث؟. لعلّ في التاريخ من القسوة ما يجعل وارث الأرض وارثاً للصليب أيضاً.

لا أستطيع التدخل في ما لا أستطيع التدخل فيه، وهو المصادفة التاريخية.

أنا من هناك - هذا هو تاريخي
أنا من هناك - هذه هي لغتي
أنا من هناك - هذا هو مصيري
أنا من هناك - هذا هو أنا

أما أجمل قصيدة ، فإن أحداً لم يكتبها بعد ، لا مَنْ ولد هنا ، ولا مَنْ وُلد هناك . لا مَنْ وُلد أمس ، ولا من يولد الآن ، ولا من يُولد غداً ..

إن أجمل قصيدة لن تكتب أبداً .. أبداً .

الموضوع هو ، شعرياً ، ذريعة لكتابة الشعر ..

أما إذا كنت تشعر به بما تقوله ، وكنت متأكداً من ذلك ، فهذا يعني في أسوأ الأحوال أن الشاعر مهما كتب ، لا يكتب غير شيء واحد في قصيدة واحدة حتى لو استغرقه الوصول الى هذا القول في هذه القصيدة آلاف القصائد التمهيدية ..

وهو يعني ، في أحسن الأحوال ، أنني لست شاعراً جيداً . وهذا الاحتمال ، بالطبع ، خير من الاحتمال الأول .

ولكن ..

اذا كان السؤال معطوفاً على ما سبقه من كلام عن المقارنة التاريخية ، فليس في وسعنا أن نعالج هذه المسألة المنسوبة الى قراءة الرمل : ماذا لو .. لو .. ماذا ؟ لا أحد يعرف . ولكني أعرف أن البعض ، وخاصة من الخصوم السياسيين ، ينتظرون موت قصيدتي مع موت غربتي ما دمت هنا ، وينتظرون موت قصيدتي مع انهيار جدران سجني لو كنت بقيت هناك .

أنا من هناك - هذا هو تاريخي
أنا من هناك - هذه هي لغتي
أنا من هناك - هذا هو مصيري
أنا من هناك - هذا هو أنا

أما أجمل قصيدة، فإن أحداً لم يكتبها بعد، لا مَنْ ولد هنا، ولا مَنْ وُلد هناك. لا مَنْ وُلد أمس، ولا من يولد الآن، ولا من يُولد غداً..

إن أجمل قصيدة لن تكتب أبداً.. أبداً.

الموضوع هو، شعرياً، ذريعة لكتابة الشعر..

أما إذا كنت تشعر بما تقوله، وكنت متأكداً من ذلك، فهذا يعني في أسوأ الأحوال أن الشاعر، مهما كتب، لا يكتب غير شيء واحد في قصيدة واحدة حتى لو استغرقه الوصول الى هذا القول في هذه القصيدة آلاف القصائد التمهيدية..

وهو يعني، في أحسن الأحوال، أنني لستُ شاعراً جيداً. وهذا الاحتمال، بالطبع، خير من الاحتمال الأول.

ولكن..

اذا كان السؤال معطوفاً على ما سبقه من كلام عن المصادفة التاريخية، فليس في وسعنا أن نعالج هذه المسألة المنسوبة الى قراءة الرمل: ماذا لو.. لو.. ماذا؟ لا أحد يعرف. ولكني أعرف أن البعض، وخاصة من الخصوم السياسيين، ينتظرون موت قصيدتي مع موت غربتي ما دمت هنا، وينتظرون موت قصيدتي مع انهيار جدران سجني لو كنت بقيت هناك.

صدّقني أنني لا أهتمّ بهذا التنجيم، ما دمت لا أضع الشعر منافياً للهوية. ولكن، هل سيتغيّر شكل قصيدتي؟ لا أعرف، على الرغم من أن هذا الشكل الذي أبلوره الآن، بعلاقته بسؤال الشعر وبالبحث عن القصيدة الشاملة، لا يبدو لي أنه سيتغيّر، إلا بقدر ما سيتطوّر.

إن انتهاء المأساة الفلسطينية لا يوقف سؤال الإنسان الفلسطيني عن هويته الثقافية وعن دوره الإنساني، وعن وجوده، ولا ينهي السؤال الإنساني في الإنسان. إن الإنسان فينا لن يموت عندما نتحرر، ولكنه سيجد مكانه الطبيعي لكي يتطور. وهناك سنجد المناخ الملائم لقراءة الشعر وكتابته ومحاكمته بأدوات أكثر جمالية، وأقل وطنية بالمعنى الرائج للكلمة..

لم يعد هناك ما يكفي من الوهم لإرهاف لعبة الأمل، فالعقد الأخير من هذا القرن العاصف علّمنا أن نفتح باب المخيلة لكافة الاحتمالات. وعلّمنا أنه ليس للهاوية من قرار. وعلّمنا ألّا نفرح أو نغضب بما يقدّمه لنا الواقع التاريخي من مفاجآت.

كان علينا أن نركّب عقلاً آخر لكي نتحمّل صدمة المفاجآت، ولكي نتكيّف مع متطلبات فهم العالم الفوضوي الجديد.

كل شيء، إذاً، مؤقت ما دام التاريخ في حالة تعويم عام، وما دام عشوائياً الى هذا الحد.

ومع ذلك، ما زال في وسعي أن أحلم، ما زال في وسعي أن أواجه صدمة الواقع بصدمة شعرية في القصيدة الكثيفة بتبرير جمالي. ما زال في وسعي أن أشهد على آلاف من تاريخ عشته وأعيشه في لحظة واحدة.

ماذا يبقى من كل ذلك؟

لا أعرف. وربما لا أريد أن أعرف،

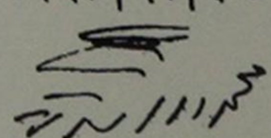
فليس في قلبي مكان لطعنة جديدة .

لا أريد أن أرى بعينيّ سقوط ما كتبته على الورق وعلى الجدران وعلى الهواء . لا أريد أن أرى أكثر مما رأيت من خيبات الأمل . ولعلّ ذلك هو ما تبقّى لي من أمل : أن أحصّن نفسي ضد الخيبة .

أما العائدون ، فإنهم عائدون ، بقصيدتي أو بغير قصيدتي .

أنا الموقع أدناه محمود درويش، أتعهد
باسم الضحايا والشهداء والمقدسات، بأن
أسلّم الحوار الصحفي مع الآنسة إيفانا
الرهيبة، كاملاً، في الساعة الرابعة من بعد
ظهر السبت الموافق ٢٨ ديسمبر عام ١٩٩١،
وإلا، فمن حق إيفانا أن تشهّر بي، علانيةً،
على رؤوس الأشهاد والأشجار.

٢٥/١٢/١٩٩١



DAR AL SAQI

دار الساقي